مجاهد بن ظافر الشهري

وإنَّ منهم لعاشقون

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn
d110d

وإنَّ منهم لعاشقون

مكتبة الحبر الإلكتروني
مكتبة العرب الحصرية

وإنّ منهم لعاشقون

رواية

مجاهد بن ظافر الشهري

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرّحمن الرحيم

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير 2019 م – 1440 هـ

ردمك 978-614-02-3636-3

جميع الحقوق محفوظة

توزيـع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبـجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: مطابع **الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

إهداء

«لم أرغب يوماً بأن يكتب إنسيٌّ حكايتي،
لأنها قد تبدو غريبةً حقّاً على عالمكم الغريب عليّ،
ولكن لا بأس في أن يدخل اسمي تاريخكم..
أمّا في ما يخصنا، فإن حكايتي ليست إلا مجرد
حكاية أخرى من حكايات الجنِّ العاشق».

هوشيار بن أفوداي
— سلطنة ناجود —

الإنس والجن

(1)

كالعادة، لم تُضف لي تلك المحاضرة المملّة أيّ جديد، معلومات مكرّرة ودكتورة أكثر من تقليدية، وعلى أيّ حال، فإنها محاضرةٌ لا تكاد تختلف عن سابقاتها منذ بداية العام الدراسي، ولذلك، وكنوعٍ من التلاعب السخيف بالزمن، ولأخفّف عن نفسي ولو قليلاً وطأة الضجر الذي انتابني، بدأتُ أرمق وبشكلٍ متكرّر تلك الساعة الحائطية المستديرة التي لم أرَ أضخم منها في حياتي كلّها، والمثبّتة في أعلى نقطة من الحائط الأمامي للقاعة الدراسية الواسعة.

كنت كمن يستجديها أن تنطلق، وتتجاوز هذه الدقائق العشر الأخيرة من عمر المحاضرة، وإذا بها وكأنها تعاندني لا تتحرّك كثيراً مع كل نظرةٍ جديدةٍ إليها، يا لسخافتها، إن عقاربها السوداء الباردة لا زالت تشير إلى الثانية إلا عشر ظهراً منذ أمدٍ طويل كما خيّل إليّ، لا بأس، ستتحرّك رغماً عنها.

التفتّ يمنةً ويسرةً على كل الطالبات الواجمات من حولي، والمنتشرات في كل أرجاء القاعة الدراسية، فاكتشفت أن حالهنّ ليس بأفضل من حالي، إنّ أغلبهنّ شاردات الذهن وغير مهتمّاتٍ لا بالمحاضَرة ولا بالمحاضِرة، بينما انشغل بعضهنّ بالعبث في هواتفهن الجوّالة خفيةً من تحت الطاولات، ربما لأنها كانت المحاضرة الأخيرة في يوم الخميس، أي قبل بداية عطلة نهاية الأسبوع، هذا وارد بالنسبة إليهنّ، ولكني أختلف عنهنّ قليلاً في هذا الشعور الغامر بالملل، ولديّ بالطبع أسبابي الخاصة.

لقد كنت متحمّسةً لهذه المحاضرة المطوّلة منذ بداية الأسبوع لأنها ستكون عن النظريات المختلفة للمدارس الأساسية في علم النفس، ذلك التخصّص الذي لطالما أحببته منذ المرحلة الثانوية،

وقضيت الساعات الطوال أسبح في أحلام اليقظة، وأنا أتخيّل نفسي وقد أصبحت معالجةً نفسانيةً مرموقةً يُشار إليها بالبنان!

وفي سبيل ذلك، فقد خالفت نصائح أهلي وتوصيات جميع من حولي لأحقّق حلمي وألتحق بهذا التخصص في دراستي الجامعية، ولكني وبكل أسف، سرعان ما بدأت أشعر بالضجر والإحباط يوماً بعد يوم، على الرغم من كوننا في بدايات المستوى الثاني من عامي الأكاديمي الأول في قسم علم النفس.

وفي الحقيقة، فإنني لا أجد تفسيراً مقنعاً لشعوري المتفاقم هذا، ولا أعلم على وجه التحديد لماذا أصبحت هكذا بكل هذه السرعة، هل هو حماسي الزائد وقراءتي بكثرة في مراجع التخصص طوال فترة الإجازة الصيفية الماضية قبل التحاقي بالجامعة؟ بحيث تجاوزتُ مبادئ التخصص بعدما استوعبتها تماماً، وأرغب الآن بالغوص عميقاً وبشكلٍ مباشر في صلب هذا الفرع من العلوم الإنسانية الذي لا أنكر أنه قد استولى على مجامع دهشتي وإعجابي.

هل حبي المزمن للقراءة والاطّلاع والذي يرافقني منذ صغري كدودةٍ للكتب وذلك كما يحلو لأهلي أن يسموّني قد جنى عليّ هذه المرّة؟

أم أن السبب يا تُرى يعود إلى طريقة تدريس أساتذتنا الأفاضل في هذه الكلية، تلك الطريقة التي لا يمكنني وصفها بأقل من أنها طريقة رتيبةٍ وبائدةٍ لا تتناسب مع روح العصر الذي يبدو أنه قد تجاوز فكرهم ونمطيّتهم دون أن يشعروا؟

أو أن العلّة الحقيقية تكمن في شخصيتي أنا؟ أعني، ما عُرف عني بأنني تلك الشخصية الملولة والمتقلّبة والمتناقضة في آنٍ، وذلك كما يدّعون هم طبعاً؟ أم تُراها مزيجٌ من ذا وذاك؟

أم هي أسبابٌ أخرى لم تخطر على بالي بعد؟

ربّاه، كم أكره نفسي عندما أفكّر بهذه الطريقة البائسة!

لعلّ أفضل جوابٍ على كل تلك الأسئلة وباختصار أنني لست أدري، وبصراحةٍ أوضح، لا يهمّني في هذه اللحظة بالذات أن أدري!

سأفكر مليّاً في هذا الموضوع المهمّ لاحقاً وبلا شك، فسيكون أمامي متسعٌ من الوقت قبل نهاية العام الدراسي، وذلك لمراجعة نفسي وفرز اختياراتي، وأظنّ أنني بحاجةٍ فعلاً إلى تحليل معضلتي هذه على نارٍ هادئة، علّني أجد لها حلاً يناسبني، فمثل هذه الأمور تحتاج إلى تفكيرٍ متأنٍّ، ولا داعي أبداً للتسرّع في الوصول إلى نتيجةٍ حيالها.

حمداً لله، لقد انتهت أخيراً هذه المحاضرة الكئيبة، وكل ما يهمني الآن وأنا أودّع أعزّ صديقاتي سمر وأغادر مبنى الكلية، هو التخطيط لرحلتنا البريّة مع عائلة خالي عمر غداً.

سمر التي تجلس بجواري دائماً خلال المحاضرات، والتي تسكنُ غير بعيدٍ عن منزلي، أصبحت في وقتٍ قصير صديقتي المفضّلة بعد أن تعرّفت إليها مع بدايتي الجامعية، وبالرغم من أني كعادتي لا أحتفظ إلا بعددٍ متواضع جداً من ما يمكنني تسميتهنّ بالصديقات واللاتي لم يتجاوزن الثلاث أبداً، إلا أن سمر هي الأقرب من بينهنّ إلى قلبي بلا شك، فهي تشبهني تقريباً في كل شيء، ابتداءً من الشكل والملامح وليس انتهاءً بالطباع والصفات، إلى حدٍّ لا يمكنني تجاهله بأي حالٍ من الأحوال، وقد يكون الأمر أقرب إلى تجاذب الأرواح الذي مرّ بكلتينا منذ أن تقابلنا في أول يوم دراسيّ لنا في الجامعة كطالبتين مستجدّتين، وذلك أثناء عملية تسجيل المواد الأكاديمية، ولن أنسى كيف تجمّدت للحظات عندما وقعت عليها عيناي لأول وهلة، كنت كمن ينظر إلى توأمه الذي لم يرهُ من قبل!

ذلك أنها مثلي متوسطة الطول ومُنعّمة الجسد، بيضاء اللون، وذات شعرٍ بنيّ داكن، كما أن وجهها المستطيل قليلاً مع نتوءٍ خفيف للوجنتين يشبهني كثيراً، أمّا العينان العسليتان فهما ناعستان وذواتا رموشٍ طويلةٍ، مع فمٍ منمنم وأنفٍ نحيفٍ وطويلٍ بأرنبةٍ حادةٍ، وهي أيضاً تطابقني تماماً في العمر، وبرج حظّها هو نفس برجي، لذلك، فنحن وكما اكتشفتُ هي ذلك قبلي نتقارب كثيراً في الأفكار والمزاج والصفات الشخصية، وفي الحقيقة، فأنا لا أخفي ارتياحي الشديد لها ولشخصيّتها، وكأنها تلك الأخت التوأم التي لم تلدها أمي.

كان أخي طارق على الموعد اليوميّ كما عوّدني، لا بد أنه قد قضى بضع دقائق يقلّب البرامج التي يحبها في هاتفه الجوال بينما هو ينتظرني خلف مقود سيارته في نفس المكان، وذلك للعودة إلى المنزل معاً بعد أن أنهى هو أيضاً يومه الجامعي بكلية الهندسة.

كم أنا فخورةٌ به وبإنجازاته؟ وكم أنا فعلاً محظوظة بوجود أخٍ رائعٍ كطارق؟ هذا الشاب الوسيم والأنيق والمثابر والملتزم أخلاقياً والذي يخطو في عامه العشرين من العمر، إنّه يكبرني بعامٍ واحدٍ فقط، ولذلك فقد كان ولا يزال بالنسبة إليّ رفيق الطفولة والصبا والشباب وكل لحظات حياتي، نفهم بعضنا جيداً، ويدعمني ويهتم لأمري أكثر حتى من والدينا، إنه في الحقيقة ليس مجرد شقيق ودود، بل أكثر من ذلك بكثير..

– هلا حنان، هاه كيف كان يومك؟

– ماشي الحال، وأنت؟

– أوووه، كان يوم عظيم، أبشّرك قدّمنا مشروعنا الي كنا شغّالين عليه أنا وزملائي طول الأسابيع الماضية، والحمد لله أثنى الدكتور حقّ المادة على شغلنا بشكل كبير.

– حلو، ما شاء الله، موفقين يا رب.

كان طارق قد انطلق بنا على عجل في وسط زحمة السير المعهودة من خلال شوارع الرياض، تلك الزحمة التي تصيبني دوماً بالقرف، ولا أعلم فعلاً كيف يحتملها طارق وكل الذين يقودون سياراتهم ليلاً ونهاراً، في هذه المدينة المزدحمة والمترامية الأطراف؟

أما أنا، فأعترف بأنني لا أنوي أبداً الإقدام على هذه الخطوة، أعني قيادة السيارة في مدينةٍ كالرياض، ولا أتحمّس لذلك مثل أكثر الفتيات ممن هنّ في عمري، على الرغم من إجادتي التامّة للقيادة منذ أعوام بفضل أبي الذي كان مصرّاً على تدريبنا بجدّية أنا وأمي في كل فرصةٍ سانحة، وبالفعل، فقد حصلت على رخصة القيادة الخاصة بي وبكل سهولة من إدارة المرور في نهاية العام المنصرم، بعد اجتيازي للدورة التدريبية والاختبارات المخصصة لذلك بيسرٍ وتفوّق.

كان ذلك مباشرةً بعد القرار التاريخي الذي بدأ العمل به منذ شهر يونيو 2018 بالسماح للنساء بقيادة السيارات في السعودية، عقب عقودٍ ممتدّة من الحظر، كان ذلك قبل ثمانية أشهرٍ بالضبط من الآن، لقد بادرت بالحصول على رخصتي لقيادة السيارة لأني كنت وسأظلّ من أكثر المؤيدات لكل حقوق المرأة السعودية المشروعة في ممارسة حياتها بشكل طبيعي ككل النساء في هذا العالم المتحضّر، وبالطبع، فإنّ من أوائل – ولن أقول أهم – تلك الحقوق هو قدرتها على قضاء

شؤونها وشؤون من ترعاهم بنفسها، دون الحاجة إلى اللجوء إلى سائق أو زوج أو أحد ذويها من الرجال، إلا أنني وبنفس القدر، أحتفظ أيضاً بحقّي الخاص في الامتناع عن ذلك، على الأقل في الوقت الراهن، وذلك لعدم قدرتي على تحمّل كل هذا الجهد والصبر الذي يبذله سائقو وسائقات السيارات في مدينة تعجّ بالاختناقات المرورية كالرياض! ربما لو كنت أعيش في مدينة أخرى أصغر وأكثر هدوءاً وأخفّ ازدحاماً لكان لي رأي مختلف.

وصلنا إلى المنزل بعد ساعةٍ ونصف الساعة من الصخب المروري المعتاد الذي يملأ الشوارع، قضينا الوقت خلالها ونحن نتجاذب أطراف الحديث حول التفاصيل والترتيبات اللازمة لرحلة الغد المرتقبة، ولقد لاحظت أن طارق لا يشاركني نفس الحماس والإثارة، وقد أعزو ذلك إلى تشبّعه من هذا النوع من الرحلات البريّة خلال فصل الشتاء وبواكير الربيع، فقد تعوّد عليها هو وأصدقاؤه ولا يشتاق إليها مثلي، إذ قلّما تمرّ عليهم عطلة نهاية الأسبوع دون أن يستمتعوا بالأجواء البريّة الخلاّبة في مثل هذا الموسم الذي يختصّ دون سواه بالأمطار المتفرّقة، في بيئةٍ صحراوية جافة المناخ وكثيرة الغبار في أغلب فصول السنة كبيئة نجد..

(نجد العذبّة)، وما أدراك ما نجد؟

عشقي الأبدي برغم طقسها القاسي..

صحراؤها العتيقة هي الجنة في أعيننا..

وحبّ طبيعتها هو الأمر الذي يدفع بالجميع هنا إلى استغلال هذا الموسم الذي قد يمتد أحياناً إلى أربعة أشهر من كل عام في التخييم وتنظيم الرحلات البرية إلى كل المتنزّهات الطبيعية والغدران ومجاري الأودية والشعاب والكثبان الرملية الساحرة المحيطة بمدينة الرياض، إنها بالتأكيد عادة سنوية قديمة ومتوارثة، أشبه بالكرنفال الشعبي الذي يمكنني تسميته بأريحيّة (كرنفال المكشات)، والمكشات لمن لا يعلم، هو الاسم الدارج باللهجة المحلية لمختلف الرحلات البرية.

هذا الكرنفال قد يستمر عدة أشهر متواصلة من كل عام، فهو مرتبط بفصل الشتاء وبدايات الربيع مع هطول الأمطار، ويحرص على الانخراط فيه هنا كلّ أهالي مدينة الرياض وما جاورها من المدن والبلدات، الأفراد والعوائل على حدٍّ سواء، خاصةً في مثل هذه الأيام التي تعقب موسم

الأمطار، وذلك ليقضوا من خلال الأجواء البريّة الممتعة أجمل الأوقات وأسعدها في أحضان الطبيعة الهادئة والحنونة، بعيداً عن صخب المدينة وسطوة المدنيّة التي لا ترحم.

فالنهار غالباً يُخصّص للتنزّه والاستمتاع بمدّ النظر إلى تفاصيل الطبيعة الصحراوية الآسرة في عيون أهل نجد منذ الأزل، ولا يخلو الأمر كما جرت العادة من استعراضٍ احترافيّ لمهارات الطبخ، وذلك عبر أطايب الأكلات الشعبية المفضّلة أو التلذّذ بشواء لحوم الضأن البلدي الذي لا يضاهيه في لذّة الطعم أي نوعٍ آخر من اللحوم، بالإضافة إلى العديد من الأنشطة والمغامرات التي لا يمكن أن تحلو أي رحلةٍ بريّةٍ بدونها.

أما المساء.. المساء في البريّة هو بحقّ عالمٌ آخر! وعادةً ما يتمّ تخصيصه للمسامرة والمؤانسة والأحاديث المنسيّة، ولا بد خلاله من تناول أجود أنواع التمور (القدوع) في بلد التمور الأول في العالم مع فناجين القهوة السعودية ليحين بعدها دور الشاي الجمري، إذ لا يمكن مقاومة ذلك أبداً.

وتتجلّى المتعة في تلك الأجواء الآسرة مع هبوط الليل بالتحلّق طلباً للدفء على ضوء النار ذات اللهب المتوهّج، تلك الجذوة الأبدية التي تسبي قلوب السمّار قبل أعينهم بأطياف لهيبها حين يلوّن ليالي الصحراء الخلاّبة.

انهمكت أنا وأختي الصغرى خولة فيما تبقّى من سويعات هذا المساء في مساعدة أمي لإنجاز كل التجهيزات الضرورية لرحلة الغد، بينما انشغل أبي وأخي الأكبر عبد الله في التنسيق مع خالي عمر لاختيار المكان المناسب للرحلة العائلية الكبيرة، أما طارق فقد أرسله أبي منذ العصر إلى إحدى محطات الصيانة المجاورة ليتفقّد الحالة الميكانيكية لسيارته (الجمس) الكبيرة ذات الصفوف الثلاثة التي يُطلق عليها محلياً اسم (الصالون)، وهو إجراء روتيني يحرص عليه أبي قبل كل رحلة عائلية أو سفر.

لقد نال منا الإرهاق جميعاً، وذلك بعد يومٍ حافل بالاستعداد للانطلاق فجراً، وكنت أول من أوى إلى فراشه من بين كل أفراد العائلة، إذ أرهقني الحماس المتدفّق أكثر من الجهد البدني، فلجأت إلى النوم لعلّه يختصر الساعات التي تفصلنا عن الفجر.

(2)

ما أجمل تباشير الفجر خارج المدينة، هنا تستطيع أن تلحظ وبوضوح مشهد انشقاق المدى المعتم بنور الفجر الوردي الذي ينعكس أخّاذاً على بياض السحاب القطنيّ، وسرعان ما تشرق الشمس فتملأ الدنيا ضياءً، وتشحن الكائنات نشاطاً، وبالتأكيد فإن أبي أحد هؤلاء الذين يعجوّن بالنشاط وبشكلٍ تلقائي يثير الدهشة مع كل فجر.

منذ أن فتّحت عيني على هذه الدنيا وهذا طبعه الذي لا يتأثر بشيءٍ ولا يتغير بزمن، وإنني أبذل كل جهد لاكتساب هذه العادة منه كباقي عاداته التي تعجبني، وهو يعلم يقيناً كم أنا معجبٌ بشخصيته وعصاميته في الحياة، إنه بلا شك مثلي الأعلى، وأنا فخور به حتى النخاع، ولكنني سأحتاج حتماً إلى المزيد من الأعوام وذلك لأستنسخ منه كل ما أستطيع من العادات الحسنة والصفات الجميلة، وكم أتمنى أن أصبح ناجحاً وحكيماً مثله؟

ولذلك فقد التحقت بكلية الهندسة دون سواها لأصبح مهندساً، ولأشقّ طريقاً إلى النجاح يشبه طريقه، ومع أنّه لا يحبّذ مني كل هذا القدر من التماهي، وذلك لإيمانه العميق بأن لكل إنسان فرادته الخاصة التي تميّزه عن الآخرين، وكثيراً ما حاول ثنيي عن هذا الطريق الذي أسلكه بقناعةٍ واعيةٍ، خاصةً عندما أناقشه في مثل هذه الأمور، غير أن سدود مقاومته تلك تنهار عادةً أمام طوفان إصراري وقناعتي، فيكتفي بإنهاء الحوار وقد هزّ رأسه ورسم ابتسامته الواثقة على شفتيه، قائلاً:

– لا تستعجل يا طارق وأنا أبوك، يمكن يتغيّر رأيك مع العمر، نبي نشوف!

تأمّلت وجهه الذي أحبّه للحظات، دون أن يشعر بي، وقد بدا مرتاحاً في المقعد الأمامي الأيمن بجوار أخي الأكبر عبد الله الذي كان منهمكاً بقيادة السيارة. لقد ورثتُ عن أبي توسّط قامته

ونبرة صوته وملامح وجهه الوسيم كما أعتقد ويعتقد الآخرون، ذلك الوجه البيضوي الشكل والمتأنّق والحليق ذي الشارب المهذّب بعناية، والذي لا زلت أراه برغم تجاوزه الخمسين عاماً في قمة الحيوية والميل إلى الوسامة بفضل عينيه الساحرتين العسليتين وأنفه المرسوم وبشرته الحنطية الفاتحة.

كان يراقب حيناً الطريق الصحراوي الذي يشقّ بنا القفار الممتدة غرباً عن مدينة الرياض باتجاه الطائف، ويتداول الرأي بكلماتٍ مقتضبة حيناً آخر مع عبد الله، بينما كان الأخير يمسك بمقود السيارة بقوة، ولا ينفكّ بصره عن التركيز على الطريق وعلى متابعة سيارة خالي عمر التي تسير أمامنا، ومع أني أختلف مع عبد الله في كثيرٍ من الأمور، إلا أني أعتبره جديراً بالاحترام لأنه متعقّل بطبعه ولديه الكثير من الحزم ومقومات القيادة التي ورثها عن أبي، وهو يكبرني بثلاثة أعوام، ويعمل معلّماً للغة الإنجليزية في إحدى المدارس الحكومية المتوسطة.

أخذت جولة ببصري على جميع أفراد العائلة، فشدّ انتباهي أمرٌ لطيف لم يسبق لي الانتباه إليه، وهو أن لركوب جميع أفراد العائلة في سيارةٍ واحدة ميزة تفوق جلوسهم مجتمعين، سواءً في المنزل أو في أي مكانٍ آخر، فهنا فقط لا يمكنك المغادرة متى شئت، بل أنت مجبرٌ على البقاء مع الجميع حتى نهاية المشوار، وهنا أيضاً تقاربٌ جسديٌّ كبير قد يعبّر عن روح العائلة ووحدة مصيرها أكثر من أي مكان آخر.

أدرتُ رأسي إلى الخلف، وإذا بخولة قد استلقت بعرض المرتبة الأخيرة من السيارة، واضعةً سماعات الرأس السلكية البيضاء على أذنيها وهي تدندن بصوتٍ مسموع مع الأغنية التي تستمع إليها عبر هاتفها الجوال، وقد حاولت بكل فضول التركيز واستراق السمع لأعرف ما هي تلك الأغنية، ولكن صوت خولة المصطنع وتنشيزها عن اللحن الحقيقي جعلا من ذلك مهمةً مستحيلة.

لقد قضينا منذ غادرنا المنزل مع الفجر وحتى الآن قرابة الساعة، وقد بدا واضحاً أن الملل يتسلّل إلى أمي التي تجلس إلى جواري في منتصف المرتبة الثانية من السيارة، فقد أخرجتْ من حقيبتها اليدوية مرآتها وعلبة ماكياجها للمرة الثانية منذ بداية مشوارنا، وأخذت تتزيّن بها في هدوء، إنها عادتها المفضلة التي تلجأ إليها في مشاوير السيارة الطويلة لتخفيف التوتّر! وما أن فرغتْ من التزيّن حتى عادت إلى هاتفها الجوال من جديد، تعبث به في كتابة محادثاتها عبر برامج الدردشة التي لا تستغني عنها في سفرٍ أو حضر.

لن أدَّعي الكثير من المثالية عند الحديث عن أمي وعلاقتها الباردة بنا نحن أولادها منذ طفولتنا، ولا عن علاقتها الفاترة جداً من الجهة الأخرى بأبي ومنذ أعوام طويلة بسبب طباعها وتعاملها معه كزوج وكذلك لعدم رضاه عن مستوى اهتمامها بنا كأمّ، وهذا الأمر برمّته بلا شكّ قد أثَّر علينا جميعاً كعائلة، وإن اعتقدنا أننا تجاوزناه مع مرور الأعوام، ويمكنني القول وباختصارٍ إن أمي واحدة من ذلك النوع من الأمهات الأنانيات، وذلك حسب رأيي!

هي بلا شك تحبّنا كوننا أولادها، وذلك بدافعٍ من غريزة الأمومة المزروعة فيها، ولكنها في ذات الوقت تحبّ نفسها أكثر بكثيرٍ أيضاً، وبطريقةٍ تكاد تكون مرضيِّة، وبشكلٍ لا يسعني مهما حاولت وصفه أبداً.

أعتقد أنني في هذه السنِّ قد نضجت قليلاً وتعلّمت أكثر، ولذا، فقد تجاوزت تلك الأفكار الصبيانية المعلّبة التي تحكمها العاطفة البحتة والموروث الاجتماعي دون تمحيص، لقد أصبح من حقي أن أقيِّم نفسي والآخرين وبلا استثناء تقييماً موضوعياً، ومن هذا المنطلق، ومع كامل اعترافي بفضل أمي علينا كوالدتنا، فإنه يمكنني القول وبكلّ تجرُّد أنها لم تتعب نفسها كثيراً في تربيتنا، إلى درجة أنني وكل إخوتي لا نكاد نخفي امتعاضنا من ذلك، فنحن نتشارك نفس ذكريات الطفولة المبكرة وما بعدها والتي تخلو تماماً من أمي، وتمتلئ فقط وللأسف بخادمتنا المنزلية طيّبة الذكر سوهاتي!!

أمنا التي لم تلدنا.. سوهاتي.

تلك المرأة العظيمة التي ندين لها بجزيل الفضل والعرفان، فقد كانت بمثابة الأم بالنسبة لنا جميعاً، وذلك بعد أن قضت معنا ما يربو على الخمسة عشر عاماً من عمرها وأعمارنا، ولتغادرنا بعد ذلك بطريقةٍ مفاجئة بسبب إصرار أمي على مغادرتها إلى بلدها إندونيسيا منذ ثلاثة أعوامٍ تقريباً، تاركةً وراءها فراغاً لا يسدّه أحد.

غفر الله لها، وجزاها عن تربيتنا خير الجزاء، إننا لا زلنا حتى هذه اللحظة نفتقدها كثيراً، ونفتقد طيبتها وحنانها وكل شيءٍ جميل غرسته فينا، ولا يكاد يمرّ علينا شهر دون أن نتواصل معها بشكلٍ جماعي أنا وإخوتي بدون علم أمي بالطبع، وذلك للاطمئنان عليها، فتغرقنا كعادتها بمشاعرها الدافئة وأمنياتها الصادقة لنا بالتوفيق والنجاح، مع كثيرٍ من أنين بكائها الذي يقطّع نياط القلوب.

نظرتُ إلى حنان الجالسة بجوار النافذة اليمنى، فوجدتها على النقيض تماماً من أمي، في غاية السعادة والانطلاق، مستمتعةً بكل تفاصيل الطريق والأجواء الشتوية مع الصباح الباكر، ولم تتوقف عن تصوير معالم الطبيعة التي مررنا بها من خلف النافذة بكاميرا هاتفها الجوال، وهذا ما يدفعني إلى الاعتقاد بأنها تحتفظ بنفس الشعور الغامر بالإثارة منذ الأمس، هكذا هي حنان.. عندما تريد شيئاً تنغمس فيه بكل عنفٍ بحواسها ومشاعرها حتى تحرقه وتحترق هي معه، ثم سرعان ما تُصاب بالضجر فتنقلب عليه.

إنها بطبعها صادقة وصريحة وشجاعة، وهو بالعادة ما لا يعجب الآخرون فيها، إذ تبدو لهم عندما يفكرون فيها بسطحيتهم كشابةٍ في قمة التناقض والاضطراب، وذلك لأنهم لا يعرفون ما تخبّئ في دواخلها من الكنوز، وأقصد بذلك طيبتها ونقاوة روحها التي لا تُقدّر بثمن.

ما لا يعرفه الآخرون أيضاً، أنها ذكية ومثقفة ثقافة واسعة وإن كانت انطوائية ولديها سلوكيات غريبة غير مفهومة منذ صغرها، وهي بالمناسبة أقرب أفراد عائلتنا إلى قلبي، لأني أحبها وأحب تلك الروح الطاهرة التي تملكها. وما دمتُ أتحدّث عن حنان والحبّ والمشاعر الفيّاضة، فيجب أن يفرض اسم سمر حضوره الطاغي على أعماق وجداني، لأنّ مجرد ذكر اسمها يحولّني بكاملي إلى قلبٍ مرتبك ينبض في قوةٍ بالحب والأشواق، فحبنا السرّي الثائر بقلبينا هو بركان متدفّق الحِمم يتصاعد نشاطه وبلا توقّف يوماً بعد يوم ومرحلةً بعد مرحلة.. آهٍ ثم آه، يا ويح قلبي.

لو تعلم حنان عن علاقتي المشتعلة عاطفةً وجسداً مع أعزّ صديقاتها سمر، لربما كانت تلك صدمة حياتها الكبرى، ذلك أن سريرتها البريئة لا يمكن أن تتخيّل أو تتحمّل وجود شيءٍ كهذا، أمّا لو أنها تعلم ما أعلمه عن سمر لكانت صدمتها أعظم.

صحيحٌ أن سمر تشبهها شكلاً، ولكنها تختلف تماماً عنها في شخصيتها وطباعها، وهو ما لا تدركه حنان حتى هذه اللحظة، وهو في الوقت عينه، ما يدعوني للتعلّق بسمر المنطلقة والجريئة والمدهشة، فسمر ذكية جداً أيضاً، وقد تقرّبت لحنان وصادقتها لا من أجلها بل من أجلي أنا، وذلك بعد أن أُعجبت بي وقرّرت الوصول إلى قلبي، مهما كلفها ذلك من ثمن، وأعترف بأنها قد نجحت أيّما نجاح، ولقد كانت قادرةً على إخفاء هذا الأمر عن حنان وبسهولة، وقادرة أيضاً على إقناعها بتشابههما في الطبيعة والصفات لكسب صداقتها، فهي ممثلةٌ عظيمةٌ وتعرف جيداً ماذا تريد، وكيف تحقّق ما تريد.

أعتقد أننا غير بعيدين عن مقصدنا، وبالفعل فقد انحرف خالي بسيارته وتبعناه، مغادرين الطريق الرئيسي ومتوغّلين عدة كيلومترات عبر إحدى الدروب الصحراوية الواضحة المعالم، وذلك حتى وصلنا فجأة إلى غايتنا، يا للروعة، لقد كان منظراً مثيراً بحقّ ويأسر الألباب.

توقفّنا مشدوهين للحظات على الكثيب الرملي الذي يطلّ على تلك البحيرة الرائعة والمختبئة عن الأعين بهدوءٍ مدهش بين المرتفعات الذهبية من الكثبان الرملية. لقد كان خالي عمر من القلائل الذين يعرفون هذا المكان السرّيّ، وينتظرون موسم الأمطار الشتوية من حولٍ إلى حول لتمتلئ هذه البحيرة الصحراوية بالمياه العذبة المنسكبة من السماء.

وعلى الرغم من شكّي الذي سيطر عليّ بشأن جمال هذا المكان حسب تأكيدات خالي لأبي منذ الليلة البارحة، وذلك بحكم خبرتي في الأماكن التي تصلح للرحلات البرية، إلاّ أنني أعترف الآن بأن خالي عمر كان محقّاً وغير مبالغ عندما أسهب في وصف هذا المكان المدهش.

استغرق منا الأمر عدة دقائق، للنزول من السيارتين وإنزال تجهيزات الرحلة وترتيب الوضع، وذلك قبل أن ينطلق الجميع بحرِّيةٍ وانعتاق، كلٌّ واهتماماته ومكامن متعته، وفي الحقيقة، فإن الأمر الذي زاد كثيراً من استمتاعنا هو نظافة المكان، نظراً إلى ندرة روّاده العارفين بوجوده، وخلوّه في هذا الصباح من المتنزّهين، وهو ما دفعنا إلى أن نشعر وكأننا نملك كل هذا الجمال البكر دون أن يشاركنا فيه أحد. وكالعادة، فقد افترش الكبار الأرض الرملية الناعمة، موزّعين على جلستين مجاورتين للبحيرة، واحدة للرجال وأخرى للنساء، كما جرت العادات الاجتماعية لدينا، بينما انطلق أطفال خالي الثلاثة برفقة خولة يلعبون بكل مرحٍ في كل مكان أمكنهم بلوغه، تارةً يتدحرجون من فوق الكثبان الرملية، وأخرى يتراشقون بمياه البحيرة، دون أن يُسمح لهم بالخوض أو السباحة فيها، نظراً لخطورتها حتى على أبرع السبّاحين الذين قد تبتلعهم بكل سهولة، فمثل هذه البحيرات الصحراوية كما نعلم ويعلم أهل الصحراء ليست إلاّ منخفضاً طبيعيّاً عميقاً، تتجمّع فيه مياه الأمطار الموسمية، لتشكّل قاعاً مخادعاً من الطمي المتحرّك القادر على ابتلاع أي شيء.

كانت نزهة عائلية مثالية بكل ما فيها من المواقف اللطيفة والألعاب الخفيفة والقصص التراثية والقصائد الشعبية التي كان أبي يتفنّن في روايتها، والتي أسمعها لأول مرةٍ في حياتي، وكأنه كان يحفظها ويحتفظ بها منذ أعوامٍ حصراً لمثل هذه الأجواء البرية المميّزة.

وبعد أن فرغنا من تناول (مضغوط الحاشي) الذي أبدع خالي عمر كعادته في إعداده كغداءٍ متأخر بعد العصر، ونزولاً عند رغبة الجميع، فقد قرّر أبي وخالي البقاء حتى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل، وذلك للتمتع أكثر بالأجواء الصحراوية.

ولكن هذا اليوم الجميل لم ينتهِ جميلاً كما بدأناه للأسف، فقد تحوّل فجأة إلى أحد أسوأ الأيام التي مرّت عليّ في حياتي!!

هكذا وبدون مقدمات، كانت تلك الصدمة التي غيّرت كل شيء، فلقد كان القدر يخبّئ لنا مع حلول المساء مفاجأةً مأساويةً من النوع الذي لا يحتمل العمر تكرارها، مفاجأةً لم تخطر على البال أبداً أبداً!!

(3)

– لقد أقسمتُ هذه المرة ولن أحنث بقسمي، سأغادر، ولن أعود إليكم!

كان هذا القسم هو آخر جملةٍ قلتها لهم، لأهل قريتي آدوم، وذلك قبل أن أرحل عنهم مع المساء.

صحيحٌ أني أحبهم كما أحب قريتي التي نشأتُ وترعرعتُ فيها طوال عمري الذي تجاوز الآن المائتي عام، ولكن إلى هذا الحدّ وكفى، أجل، يجب عليهم أن يحترموني ويقدّروا إمكانياتي، لا أن يطردوني من الدار السلطانية التي خُصّصت لمن هم مثلي وفي مكانتي، لا أعلم كيف وصلت بهم الوقاحة إلى هذا الحدّ؟ أن يعرضوا عليّ السُكنى مع عددٍ من الأفراد في إحدى الدور التي تُوزّع على العامّة؟

أنا الجنيّ الوحيد في قريتنا الذي يجيد القراءة والكتابة، لقد قضيت عمري كله في خدمة قريتي ككاتبهم الوحيد الذي لا يستغنون عنه، فكم أعددتُ لهم من الخطابات المنمّقة والرسائل المؤثّرة مستخدماً أجود أنواع الكحل الهندي وأفضل جلود الحملان التي لا أقبل عادةً بالكتابة على غيرها؟

تلك الخطابات والرسائل التي ميّزتنا عن غيرنا، وكانت سبباً في علوّ صيت قريتنا في مختلف أرجاء سلطنة ناجود خلال كل تلك الأعوام الطوال، وها هم الآن وبكل بساطةٍ وبعد كل هذه الأعوام يكافئونني بهذه الطريقة، سحقاً لهم.

إما أن يعاملوني كما ينبغي، وإلا فإنه الفراق بيني وبينهم، وكما يُقال، فإن الأرض واسعةٌ فلاها، وسأجد حتماً من يقدّرني حق قدري، أما هم، فليفتّشوا عن كاتبٍ آخر غيري في مثل خبرتي

وإتقاني، وأكاد أقسم أنهم لن يجدوا!

إنني لا أغضب بسهولة كما يعلم كل من يعرفني، ولو كانت المرة الأولى التي يستفزّوني فيها لغفرتُ لهم، لقد تحدّثتُ إليهم غير ذي مرةٍ ولكن دون جدوى، الأمر الذي جعلني أصعّد الأمور بعد أن اشتكيت إلى أمير قريتنا عوكام الذي وعدني خيراً، ولم يتغيّر أيّ شيء أيضاً، بل إن الأمور بعد ذلك قد ازدادت سوءاً، لقد عانيتُ كثيراً منذ البداية لأجد تفسيراً مقنعاً أركنُ إليه، ولقد وجدتُهُ أخيراً وليتني لم أفعل، فلقد اكتشفتُ الآن السبب الحقيقي الذي لم أستوعبه منذ البداية، أو لأقُل أنني كنتُ أتجنّب التفكير فيه، وهو أن عوكام بنفسه يقف وراء هذا كله!

أمّا لماذا؟ فلا بد أنها الغيرة ولا شيء سواها للأسف، غيرة عوكام مني ومن شهرتي التي طبّقت الآفاق هي السبب الحقيقي لكل هذا، وقد تمكّن بخبثه ودهائه من إقناع الآخرين بتكبّري عليهم، فصدّقوه. لقد استغلّ طيبتهم وسذاجتهم أسوأ استغلال، يا لهم من أغبياء حقّاً.

إن الغيرة التي أحرقت روحه قد أدّت به إلى أن يخشى على منصبه منّي فيما لو تناهى خبر إمكانياتي الراقية إلى مسامع سلطاننا الأكبر، تلك هي كل الحقيقة المُرَّة، ذلك أن غيرته ومن ثمّ خوفه مني يدفعانه دفعاً إلى مضايقتي أكثر فأكثر كلّما علا شأني علّني أرتكب حماقةً ما أو أقدم على فعل سوءٍ يشوّه سمعتي للأبد، لأنه يعلم جيداً كما يعلمون جميعاً كم أنا معروف وصاحب قدرٍ رفيع، ليس على مستوى قرية آدوم وما جاورها فقط، ولكن على مستوى سلطنة ناجود بأسرها.

والآن، قرّرت أن أرحل عنهم، فيرتاحوا مني وأرتاح منهم، وإن كان هناك فرق بيني وبينهم سيدركونه لاحقاً، وهو أنني لا أحتاج إليهم بينما هم يحتاجون إليّ، سوف أنطلق في حياةٍ جديدة بينما سيندمون هم، وسيحاولون إرضائي كما سبق وأن فعلوا، أنا متأكد من ذلك، ولكن هيهات، لقد سبق السيف العذل هذه المرّة وانتهى كل شيء.

سأبتعد عنهم كثيراً وكثيراً، ولن يجدونني بسهولة كما يظنّون، ومن أجل ذلك، ربما يجدر بي أن أقضي هذه الليلة في الصحراء، لأرى إلى أين سأذهب مع طلوع الصباح، وأعتقد أن لديّ عدة خياراتٍ جيدة، ولكنها بالطبع تحتاج إلى المزيد من التفكير، وربما كان المبيت هذه الليلة على أطراف حاضرة الرياض خياراً ليس سيئاً في الوقت الراهن.

لا بأس، لقد غادرتُ آدوم غاضباً ومعي قليلٌ من الزاد، ولكنني في أوج غضبي نسيتُ أن أصطحب معي دابتي المجنّحة، وعلى أي حال فكل هذا لا يهمّ الآن، إنها مسألة كرامة لا أسمح لنفسي بالتفريط فيها مهما كلّفني الثمن، لقد اضطرني ذلك إلى المشي على قدميّ عوضاً عن الطيران على ظهر راحلتي، كما أنه ليس لديّ ما يكفي من الزاد إلاّ أقلّ القليل، وذلك مما استطعت التقاطه سريعاً من رديء العظام أثناء إخراجي من داري بذلك الشكل المهين، لا أريد أن أتذّكر تلك اللحظة المريرة، لعنة الله على عوكام وجنوده الأوباش!

إن الحرص على ما تبقى في جسدي من الطاقة أمرٌ ضروري، فلن يكفيني زادي هذا أكثر من أسبوع إن اقتصدت، لذا، فإن الاحتياط في مثل هذه الظروف لا مندوحة منه، فلا أحد يعلم ماذا يخبّئ له الغد، خاصةً أن الحصول على طعامي المفضّل من العظام في هذه الصحراء الشاسعة ليس بالأمر الهيّن أبداً، وكيف عساي سأجد هنا غذاءً يسدّ حاجتي من جثث الحيوانات النافقة أو من بقايا ذبائح الإنس اللئام وقد تغيّروا علينا كثيراً في الأعوام الأخيرة؟

لقد أصبحوا مؤخراً أكثر حرصاً على تنظيف البريّة من مخلّفاتهم قبل أن يغادروا أماكن نزهاتهم، إنهم يتغيّرون علينا في طباعهم وسلوكهم مع مرور الوقت، بحيث أننا لم نعد قادرين على مجاراة ما يحدثونه من تغييرات لا يمكننا استيعابها..

– هوشيار، أرجوك عُد معي.

كان ذلك صوت أعزّ أصدقائي سيبان وهو يظهر لي من العدم معترضاً طريقي؛ يبدو أنه الوحيد الذي افتقدني من بين كل أهل آدوم. نظرتُ مباشرةً إلى عينيه:

– بل أرجوك أنا يا سيبان، دعني وعُد.

– لا أستطيع أن أتركك ترحل هكذا.

– وهل تستطيع أن ترغمهم على أن يحترموني؟ جاوبني بكلّ صراحةٍ يا صديقي.

– إننا نحبك جميعاً ونحترمك كما تعلم.

– وعوكام؟

– حتى عوكام، فهو من أخبرني برحيلك، حيث أرسل في طلبي وأمرني ألاّ أعود إلى القرية إلاّ بك.

– قاتله الله، يجرح ويداوي معاً، لو تعرفون ذلك الخبيث كما أعرفه لقتلتموه!

– إنه أميرنا يا هوشيار مهما اختلفت معه، ولا يجوز أن تتحدّث عنه بهذه اللهجة.

– إنه أميركم أنتم، أما أنا، فلا أعترف به منذ هذه اللحظة.

بدا الغضب واضحاً على وجه سيبان، بينما واصلت أنا طريقي، فلحق بي، ومشى إلى جواري محاولاً إقناعي:

– هوشيار، أنا صديق عمرك وأحرص الناس على مصلحتك، أليس كذلك؟

– بلى، أعلم ذلك جيداً.

– إذنْ عد معي الآن يا صديقي، لقد قابلت عوكام قبل قليل، وأخبرني بكل شيءٍ، سيعيد لك الدار السلطانية كما وعدني.

– لم تعد تهمني يا صديقي.

– ماذا تريد منه إذن؟

توقّفت للحظة، وتوقّف سيبان معي أيضاً، أمسكته من كتفيه برفق وأنا أبتسم:

– لن أحنث بقسمي أبداً يا سيبان، إلاااا......

– إلا ماذا؟ تكّلم.

– إلاّ بشرطين، ولن أفاوض فيهما أبداً، إما أن يقبلهما وإلا فلن أعود أبداً.

اتسعت عينا سيبان في دهشةٍ بالغة، وكأنه قد حدس جيداً كل ما يجول في خاطري:

– أيّاً ما يكون شرطاك، سأبلغه بهما وبكل أمانة تحتّمها علي صداقتنا، وفي النهاية هو من سيقرّر كما تعلم، ولست أنا.

– حسناً، أولاً، يجب أن يعتذر لي أمام جميع سكان آدوم.

– والشرط الثاني؟

– أن يتنازل لي عن أمارة آدوم!

عاد سيبان خطوتين إلى الوراء من هول الصدمة، وكادت عيناه تخرجان من محجريهما وهو يتمتم:

– لا بد أنك قد جَننت.

– ربما كلنا كنّا كذلك يا صديقي، وربما لهذا السبب يسموننا الجن، فهي كلمةٌ مشتقّةٌ من الجنون كما يبدو.

كنت أتهكّم، لكنني ضحكت رغماً عني، فقد أعجبني تبريري الساخر الذي لم يخطر ببالي سابقاً، أدار سيبان ظهره لي، وهمّ بالرحيل، فأردفت:

– قلت لك كل ما لديّ، أبلغه بما سمعت، وداعاً.

لم أنتظر جوابه، بل تركته متسمراً في مكانه، وغادرته بخطىً سريعة، ثم عدت للنظر إليه بعد قليل وإذا به قد اختفى.

أعرف أنني قد بالغت في ما طلبت ولكن ما فعلوه بي تحت توجيهات عوكام ليس هيّناً أيضاً، وفي الحقيقة، لم يكن يهمّني في آدوم أيّ أحد كما يهمني سيبان، ذلك الصديق المخلص، وأظنه سيتفهّم قراراتي إن عاجلاً أو آجلاً، لقد أقسمت، وسأجعل عوكام يندم على ما فعله بي يوماً ما، مهما طال بي وبه العمر.

تابعت المسير حثيثاً والمساء يرخي سدوله على كل الأنحاء، وقررت أن استريح عند تلك البحيرة الصحراوية القريبة التي أعرفها، وربما أقضي ليلتي هناك أيضاً، ولكن ما أن اقتربت منها بعد أن هبط عليّ الليل حتى فاجأني حقاً ما رأيت!

عددٌ كبير من الإنس قد احتشدوا عند البحيرة وأنوار مركبات الشرطة الخاصة بهم قد أحالت الليل هنا إلى نهار، لا بد أن أمراً جللاً قد حدث في هذه البقعة المعزولة من الصحراء، راقبت

الوضع للحظات ثم اقتربت منهم أكثر، وذلك لأعرف ما الذي حصل ها هنا بالضبط.

أخذت أتجوّل بين رجال الشرطة وبين مركباتهم، وأسترق السمع من هنا وهناك، ولقد كانت محاوراتهم كثيرة وصاخبة كعادتهم، وما هي إلا دقائق حتى تبيّن لي ما حدث..

الآن فهمت..

إحدى الفتيات غرقت في البحيرة أثناء اللعب، يا لها من حادثةٍ فاجعة حقّاً، لقد اجتمع ذوو الفتاة على طرف البحيرة، اقتربت منهم أكثر لأشبع فضولي، فإذا هي الفتاة المتوفّاة مغطّاةٌ بملاءةٍ سوداء، ومسجّاة على الرمال.

لقد كانت أم تلك الفتاة جاثيةً على ركبتيها بجانب الجثمان وهي تبكي بمرارة وتهزّ صغيرتها الميِّتة بلطف، تهزّها عدة مراتٍ ثم تنادي عليها باسمها في وجعٍ قاتل:

- خولة، خولة، خولة.

يا إلهي، إنه موقفٌ رهيب لم أتمنَّ أبداً أن أشهده، كم هو ضعيفٍ هذا الإنسيّ أمام الحوادث التي تحيق به؟ وذلك برغم جبروته علينا وعلى كل من في الكون، إنه يثير الشفقة لديّ!

واصلت الأم نحيبها بينما وقف باقي أهل الفتاة خلف الأم وقد انخرطوا أيضاً في البكاء، لقد كانوا ينظرون إلى الجثمان وهم غارقون في حالة من الذهول الرهيب الذي يصعب وصفه، إنهم قد أخرجوها للتوّ من باطن البحيرة، وذلك بعد أن ابتلعتها قبل أكثر من ساعة، هذا ما فهمته من المحادثات التي تدور بين رجال الشرطة وبين رجال تلك المركبات الكبيرة الأخرى الذين قاموا بانتشالها من البحيرة؛ يبدو أن اسمهم الدفاع المدني طبقاً لما هو مكتوبٌ على بزّاتهم الفضفاضة الحالكة الألوان.

على كل حال، سوف أجلس على طرف البحيرة ها هنا قريباً منهم، وسوف أراقبهم، لأرى ما ستؤول إليه الأمور في هذه الليلة الغريبة، ولكن مهلاً مهلاً..

من هي يا ترى تلك الشابة الجميلة التي تجلس غير بعيدٍ عن الآخرين؟

لم أتمالك نفسي منذ أن لمحتها، راقبتها أكثر ثم ذهبت وجلست إلى جوارها، ربّاه، لقد كانت تبكي بحرقةٍ تثير العطف، لا بد أن تلك الفتاة التي غرقت هي أختها، وللحظاتٍ، تأمّلت وجهها وهي تبكي، ما كل هذا الجمال الربّاني الذي وهبهم إياه الخالق؟؟

حمداً لله أنها كإنسيّة لا تستطيع رؤيتي، اقتربت بوجهي من وجهها أكثر، نظرت إلى جميع تفاصيله بكل إعجابٍ أمكنني استحضاره، إنها المرة الأولى في حياتي التي أقترب فيها من إنسيّ بهذا القدر، لقد سحرني فعلاً جمال وجهها ونعومته، حتى أنني لا أعرف ما الذي يحدث لي في هذه اللحظة بالذات، شعورٌ غريب يجتاحني بإحكام ولا أستطيع مقاومته..

هل هو ما أسمع عنه دائماً منذ صغري من سحر الإنسيات بجمالهنّ ورقّتهن للجنّ؟

لستُ أدري.

إياك أن تقع في المحظور يا هوشيار، اهرب، اهرب الآن قبل أن تقع في الفخّ، قبل أن تتورّط في حب هذه الإنسية!

حاولت النهوض أكثر من مرة، ولكن قوةً تفوق قوّتي منعتني، وجعلتني أنظر مباشرةً وبتمعّنٍ شديد إلى عينيها الباكيتين، قبل أن أحسّ فجأة وكأني قد انتقلت معها من عالمنا المُمل هذا إلى عالمٍ آخر ساحر لا أحسن وصفه!!

***

صدمات ومفاجآت

(4)

ها هي ثلاثة أيامٍ مرّت بكل أوجاعها منذ رحيل خولة المؤلم، أسوأ ثلاثة أيامٍ مرّت عليّ في حياتي، لله الأمر من قبلُ ومن بعد، وكأنها ثلاثة أشهرٍ لا ثلاثة أيامٍ منذ غادرتنا أختي الوحيدة إلى جوار ربها.

لقد كانت تلك الجميلة تملأ منزلنا براءةً وحيوية، بحركاتها ومشاغباتها اللذيذة، لقد كانت تملأ حياتي جمالاً وأنساً بيومياتها وتفاصيلها..

من سيوقظني الآن من النوم بالصراخ في أذني وإشعال كل الأضواء وإطفاء المكيف ورشّ الماء البارد على وجهي قبل أن يهرب ضاحكاً؟

من سيسرق الآن مني ملابسي وعطوري وأدوات ماكياجي ليستخدمها ثم يعيدها بطريقةٍ مكشوفةٍ تجعلني ابتسم كل يوم؟

من سيصنع لي الآن كوب القهوة الأمريكية ويأتي بكوبه ليجلس معي ويحدّثني عن يومياته وأسراره التي تعجبني؟

من؟ ومن؟ ومن؟

إنني لا أستطيع أن أتوقّف عن البكاء كلّما استحضرت ذكرياتها وتفاصيلها الجميلة التي كانت تملأ حياتي، كل لحظةٍ تمرّ عليّ استدعي رغماً عني فصول حياتنا معاً منذ ولادتها وحتى وفاتها.

وفاتها.. ما أقسى هذه الكلمة وما أبغض نطقها؟ اللهم أجبر مصابي في وفاتها.

لقد اكتشفت أن خولة لم تكن أختي الصغرى والوحيدة فقط، بل كانت صديقتي التي لم تفارقني يوماً منذ عرفتها، نختلف ونغضب لموقفٍ ما حصل بيننا، فلا ينقضي ذلك اليوم ولا ننام تلك الليلة حتى تسارع إليّ، وتقتحم غرفتي معتذرةً، ومقبلةً جبيني، وذلك فقط من أجل أن أرضى، حتى وإن كنتُ أنا المخطئة!

لقد كانت تعتبرني مثَلها الأعلى في الحياة لا مجرد أختٍ كبرى، رحماك يا ربي، كم تعذّبني الذكريات؟

ليت أنّ لنا الاختيار أن نعيش هذه الحياة بدون ذكرياتنا الموجعة، وليت أنّ لنا القدرة على حذفها كما نحذف الملفات غير المرغوب فيها من ذاكرة أجهزتنا.

حين لا يكون لنا حق الاختيار في قبول أو رفض المواجع التي تفرض نفسها علينا في هذه الحياة، فعلى الأقل يكون لنا حق الاختيار في قبول أو رفض ما نشاء من الذكريات، أعتقد أن في ذلك مقاربةً منطقية.

لقد تذكّرت تلك المقولة التي لا أعلم أين قرأتها..

«**إن الموت لا يوجع الأموات، ولكنه يوجع الأحياء!!**»

ربما كانت لنجيب محفوظ، لست أدري، أجل، إن هذه الكلمات حقيقية وصادقة ما دمنا نحن حقيقيين وصادقين.

الأمر المؤكد الذي لا يفارقني منذ رحيلها وحتى هذه اللحظة هو أنّني لن أنساها ما حييت، ولن أسمح للأيام مهما جدّفت بي وأشغلتني أن تلهيني عن المداومة على ذكراها كل يومٍ من أيام حياتي..

ها أنا ذا أعاهدك يا الله وأعاهد نفسي بأنني سأخصّص لها ساعةً من يومي لأعيش مع ذكرياتها ولأدعو لها بكل خير، وسأسميها؛ ساعة خولة، ربّنا وتقبّل مني ومنها.

انتهينا، بل يمكنني القول ارتحنا للتوّ من شكليّات العزاء والمعزّيات، إنه حسب رأيي عُرف اجتماعي بالٍ، لا أؤمن به ولا يعني لي شيئاً، هو فقط يدعوني إلى الشعور بالغثيان نظراً لكمية

النفاق الاجتماعي الذي ينطوي عليه.

لا أشكّ بأن أمي تخالفني تماماً في هذا الانطباع عن العزاء كما تخالفني في كثيرٍ من الأمور الأخرى. إنها وبحكم طبيعتها وتعلّقها ببرستيجها وبمثاليّة صورتها أمام الأخريات من القريبات والصديقات والمعارف تهتمّ بأن يظهر العزاء بالشكل الذي يرضي ذائقتها، وتحرص على أن يكون مميّزاً ويليق بها هي، وليس بمن أُقيم من أجلها، ولا أريدُ أن أقول إنها ومنذ أول لحظةٍ للعزاء وحتى فرغنا منه كانت تتعامل معه كمناسبة اجتماعية راقية تستضيف فيها المعزّيات كضيفات شرف أتينَ للسلام عليها، لا لتعزيتها في ابنتها الفقيدة!

لقد حزنتْ كما يبدو وأفرغت كل مخزونها من الدموع على فقدان ابنتها الصغرى في تلك الليلة الفاجعة وحسب، إذ لم تكن تربطهما أصلاً غير علاقة سطحية كوالدةٍ ومولودتها ولا أكثر، ولذا، ومع استيقاظها من النوم في صباح اليوم التالي انتهى الحزن لديها، وبدأت فوراً في العمل، فقد غيّرت تنسيق قطع الأثاث في الصالة، وأضافت المفارش المطرّزة على طاولات القهوة، وأرسلت في طلب ما لذّ وطاب من أنواع المعجّنات والمقبّلات والعصائر، لقد نجحت في إنجاز تلك المهام قبل ظهر أول يومٍ من أيام العزاء، كل ذلك استعداداً للمناسبة الكبرى بالنسبة لها!

إنها لا زالت تفاجئني بين الحين والآخر، بحيث أعجزُ فعلاً عن استيعاب بعض ما تفعله في سبيل تجميل نفسها، ومن أجل رغباتها الأنانية، إنها من النوع الذي لا يمكنني التنبؤ بجديده مع أني أعرفها جيداً، فأنا مثلاً لا أستطيعُ تخيّل أن كل تلك التجهيزات للعزاء قد تمّت حتى قبل أن يدفنوا خولة!!

أيّاً يكن، فقد قضيتُ جُلّ ساعاتي خلال أيام العزاء في غرفتي، أجترُّ ذكرياتي وأعيش أحزاني، وتركتُ تلك الأجواء التي لا أطيقها لأمي التي استعانت بخالاتي لمساعدتها، أما أنا فلم أكن أستطيعُ تحمّل كل ذلك القدر الفاجر من التظاهر الاجتماعي الزائف، لا أستطيع أن أكذب على نفسي وعلى ضميري إلى هذه الدرجة.

خرجتُ من المطبخ متجهةً صوب غرفتي، بعد أن تناولتُ ما يسدّ جوعي من الطعام البارد الذي وجدته في الثلاجة، استوقفتني أمي قبل أن أصعد إلى غرفتي، وكانت تكاد تميّز من الغيظ..

- أنتي بالله ما تستحين على وجهك يعني؟

كنت أحاول أن امتصّ غضبها عليّ، ولا أودّ الدخول معها في أي نقاشات تخصّ ما حصل خلال أيام العزاء:

– هلا أمي.

– لا هلا ولا مسهلا.. مستانسة إنك فشّلتينا عند خالاتك وعند كل المعزيّات؟

تجنّبت تصعيد الأمور، فلزمت الصمت، ولكنها لم تتركني أفلت من لسانها، بل واصلت:

– ليه ما تردين علي؟

– بخصوص أيش بالضبط يا أمي؟

– بخصوص أيش؟ بخصوص الموقف البايخ الي حطيتينا فيه؟ كل الناس يسألون عن الأخت الوحيدة للفقيدة، وحضرتك منحاشة طول أيام العزاء بغرفتك، وكأننا في عزاء بنت الجيران مب في عزاء أختك؟

– والله غصب عني يا أمي، ما قدرت أبداً أقابل الناس من إلي فيني.

كنت لا أزال أجرّب التملّص من الوقوع في أيّ صدامٍ معها لو عبّرت لها عن الحقيقة التي تجيش بصدري..

– لا يا شيخة؟ على أساس هالعزاء مب لبنتي، وأنا مب أمها، ومنيب حزينة عليها ولا شي، هاه تكلمي، جاوبي.

– لا يا أمي، حاشاك، بس إنتي مشالله عليك قوية، وأكيد لك خبرة في مثل هذي المواقف، وتقدرين تتحمّلين، بس أنا والله حاولت أقابل الناس وما قدرت أبداً، وودّي تفهميني وتعذريني، أرجوك يا أمي.

انخرطتُ فجأةً في نوبةٍ من البكاء الذي اجتاحني بالفعل رغماً عني، كانت دموعي تنهمر من عينيّ كالشلال الذي أفقدني الرؤية لوهلة وأنا لا أزال واقفة في مكاني، ويبدو أن هذا الطوفان من الانفعالات الصادقة قد خفّف من حنق أمي الهادر عليّ، ولو قليلاً، فقد انخفضت حدة صوتها، ولانت لهجتها وهي تحاول تغيير موجة غضبها إلى عتابٍ هادئ:

– خلاص، خلاص، لا تصيحين، الله يقلع إبليسك، أنا ودّي بمصلحتك والي يفيد مستقبلك وأنا أمك، لأنك تعرفين إنه ما يصير كذا، ودّي تصيرين أقوى يا حنان.

مسحتُ دموعي وأنفي بكمّ قميصي وأنا أحاول أن أُنهي النقاش العقيم معها:

– أوعدك بحاول، لكن لا تضغطين علي أكثر من كذا يا أمي، عطيني وقتي تكفين.

قلتها وصعدت الدرج نحو غرفتي، وكأنني أهرب منها، لم أصدّق أنها تركتني أفلت بهذه السهولة، فأنا أعرفها جيداً إذا غضبت. أقفلت باب غرفتي، وألقيتُ بنفسي على السرير بعنف وأنا أشعر بصداعٍ مؤلمٍ يداهمني، بحلقت إلى سقف الغرفة لعدة دقائق حتى هدأت نفسي، لقد كان في داخل رأسي كتيبةٌ من الأسئلة التي لا جواب لها، وفي صدري لفيفٌ من المشاعر المتناقضة التي لا أقوى على ضبطها، لقد كنتُ فعلاً في وضعٍ لا أُحسد عليه.

قفزت إلى رأسي بلا استئذانٍ أحداث الفاجعة وبكل تفاصيلها، وكأنني استعرض شريط الذكريات بكامل أحاسيسها خلال رحلتنا المشؤومة تلك..

إننا الآن عقب صلاة المغرب حين كانت خولة قد خاضت لمسافةٍ قريبةٍ مني في مياه البحيرة، دعوتها للخروج وذلك لنصلّي سويّاً، ثم حذّرتها بقوة وطلبت منها العودة إلى البرِّ، ولكنها كعادتها المرحة كانت تضحك وهي تشير إلى أن مستوى المياه ضحل ولا يكاد يصل إلى ركبتيها، بدأت تقهقه وتركل المياه بكل قوتها في تناوبٍ مستمر بين رجليها، لحظاتٍ ووجدتها قد هربت مني بعيداً بعد أن أغرقتني بدفقات المياه المتعاقبة، لقد كانت في قمة متعتها وهي تراني أحاول تجنّب المياه التي تركلها نحوي، ولكني قررتُ الاشتراك في لعبتها، فعدتُ إليها بأقصى سرعتي، وما أن بدأتُ أخوض في المياه خلفها حتى رشقتها بعنف بكلتي رجليّ وبنفس طريقتها لتصرخ عندما غطّتها المياه، استدارت هاربةً مني ثانيةً بخطواتٍ متباعدةٍ إلى داخل البحيرة، وفي لحظة مباغتةٍ.. اختفت خولة عن ناظريّ!!

وكأن قوةً خارقةً من قاع البحيرة قد جذبتها إلى الأسفل، تجمّدت في مكاني كالجليد وأنا أرى خبطات يديها القويّة على سطح المياه والتي لم تستغرق أكثر من دقيقة، بعدها هدأ كل شيءٍ، لقد كنت كمن يرى كابوساً مرعباً لا يمتُّ إلى الواقع بصلة، ولا أقوى على الحركة أو الكلام، ولا أعلمُ حتى هذه اللحظة ما الذي جرى لي بالضبط حينها؟

كل ما أتذكّره أنني تسمَّرتُ في موضعي ذلك داخل البحيرة بينما ضجّ المكان صراخاً وجلبةً، لقد كنتُ في ذروة رعبي تلك أقرب إلى الحلم من الواقع، بحيث لم أعد أشعرُ بجسمي على الإطلاق وقد ثبتُّ عينيّ على تلك البقعة التي غرقت فيها خولة.

رأيتُ أبي ثم خالي وهما يركضان قادمين من الخلف ويتجاوزانني بسرعةٍ وقد خلعا ثوبيهما ليغطسا عميقاً داخل المياه العكرة أمامي حيث اختفت خولة، يختفيان لدقيقةٍ، ثم يخرجان لالتقاط الأنفاس، وبعدها يعودان إلى الغطس من جديد، ويخرجان ولكن.. بلا خولة!

فعلاها عدة مراتٍ وقد امتلأ وجهاهما وملابسهما طيناً، بينما كان الباقون الذين لا يجيدون السباحة يراقبانهما عن يميني وعن يساري بين باكٍ ومبتهلٍ إلى الله، وفي الحقيقة فإني لا أذكرُ أبداً ما الذي حدث بعد ذلك، يبدو أنني قد فقدتُ الذاكرة عند هذه الجزئية من الأحداث، فقد رووا لي لاحقاً تفاصيل ما حصل بعد ذلك، وكيف أنهم وبعد أن يئسوا من إنقاذ خولة أخرجوني من البحيرة، وحضرت عدة فرق من الدفاع المدني والشرطة بكامل آلياتهم وتجهيزاتهم بعد أن استغاثوا بهم.

لقد استغرق منهم إخراج جثة خولة من باطن البحيرة قرابة الساعة، حيث كانوا يقومون بعملية إخراجها بعد أن هبط الليل، إنها لم تكن عمليةً سهلةً أبداً، إذ كان يتوجّب عليهم البحث عنها عميقاً ما بين الطمي، مستعينين بأجهزة الإضاءة المائية والكثير من عدّتهم الاحترافية المخصّصة لمثل هذه المواقف.

ما أستطيع تذكّره بعد ذلك أنني كنت أجلسُ وحيدةً ومرتعدةً وباكيةً على طرف البحيرة وقد دثّروني بفروة أحدهم الصوفيّة اتقاءً للبرد، وأتذكّر أيضاً أن طارق قد أقبل عليّ بعد ذلك، وتحدّث إليّ قليلاً، ثم صحبني إلى سيارتنا وقد انتهى كل شيء.

لم تُتح لي حتى فرصة إلقاء النظرة الأخيرة على جثمان خولة ووجهها الحبيب، لقد أخذوها بواسطة سيارة الإسعاف إلى المستشفى لإنهاء الإجراءات الخاصة بتسجيل الوفاة وإلى ما هنالك، وبعدها غادرت كل الفرق الأمنية بآلياتهم وسياراتهم، ثم غادر أبي بمعيّة خالي إلى المستشفى، بينما عدنا نحن وعائلة خالي عمر في سيارتنا إلى المنزل، وقد لفّنا جميعاً حزنٌ جماعي رهيب لن أنساه ما حييت.

أغمضتُ عينيّ عندما وصلتُ بذاكرتي إلى مشوار عودتنا الكئيب ذلك إلى المنزل، حيث اختلط ظلام الليل مع ظلام الطريق مع ظلام الحزن.

وبينما كان الصداع يلفُّ رأسي كله وأنا أجترّ سيل الذكريات الحزينة، أعدتُ طرح ذاك السؤال على نفسي، نفس ذاك السؤال المحيّر الذي لا أملك له جواباً:

هل تسبّبتُ في غرق خولة بطريقةٍ ما؟

لا أعلم كيف سقطتُ فجأةً في سباتٍ عميق أقرب إلى حالة الإغماء، لكنني سرعان ما استيقظت على صوت خبطٍ شديدٍ لا يتوقّف على باب غرفتي!

قفزت من سريري مذعورة، وفتحت الباب، وإذا بطارق يقف أمامي والذعر يملأ وجهه..

كان يهتف بي في خوفٍ وهو يجذبني من يدي بقسوة ويجرّني خلفه دون أن أدري إلى أين:

– إلحقي يا حنان، إلحقي على المصيبة الي تحت.

(5)

لم يخطر ببالي يوماً أني سأشهد موقفاً كهذا، ولا حتى في أسوأ كوابيسي، كان مشهداً يصعب استيعابه منذ الوهلة الأولى، الأمر الذي دعانا إلى إبطاء خطواتنا أنا وحنان تلقائياً وللحظات عندما أبصرنا ما يدور أمامنا ونحن على أسفل درجات السلّم في طريقنا إلى الصالة، ربّاه، لا لا، هذا مستحيل، عيناي لا تستطيعان تصديق ما أرى!

هذا لا يمكن أن يحصل في منزلنا أبداً، لقد كان أبي يضرب أمي أمامنا وبكل عنف بينما كان عبد الله يحاول مستميتاً السيطرة على أبي الذي لم أرهُ في حياتي بتلك الحالة من الغضب والانفعال الجنوني، تخلّصت من تأثير الدهشة العارمة التي انتابتني للحظة، وقفزت كالمجنون لأساعد عبد الله في محاولاته، بينما كان صوت صراخ حنان من خلفي يسابقني، وبالفعل، فقد نجحنا في إبعاد أبي الهائج عن أمي التي كانت تفترش أرض الصالة وقد خارت قواها.

إن آثار الضرب قد طالت شعرها وهيئتها وملابسها، ولكن حمداً لله، لقد حال وجود عبد الله منذ بداية العراك دون وقوع ما لا تُحمد عُقباه، يبدو أنها كانت معركةً خاطفة لم تُصب فيها أمي بأذىً جسيم، وسرعان ما ارتمت عليها حنان وحضنتها في محاولةٍ لحمايتها، لقد كان موقفاً عصيباً بحق لا يقلّ في صعوبته عن موقف غرق خولة الذي لم نتعافَ من هوله بعدُ، بل ربما كان أوقع منه أثراً على نفوسنا المُتعَبة، ما الذي حلّ بنا وبعائلتنا؟

ما كل هذه المصائب المتعاقبة دفعة واحدة؟

ما سبب هذه العاصفة من الأحداث الموجعة؟

أستطيع أن أقول إن زجاج مرآة عائلتنا الذي حافظ على أناقته ونقاوة ملمسه طوال كل تلك السنين قد تهشّم للأسف بعد هاتين الضربتين، أعرف أن العلاقة بين والديّ ليست على ما يرام منذ طفولتنا لأسبابٍ يخفيانها عنّا، لكنهما على الأقل كانا حريصين كل الحرص على صورتهما الرصينة أمامنا، إذ لم يسبق لهما أن اختلفا بعنف أو رفع أحدهما صوته على الآخر في وجودنا، لقد كانا قادرين دوماً على حلّ خلافاتهما بعيداً عنّا، إذن، ماذا حدث بينهما لتنفجر الأمور بهذا الشكل؟

وكيف تطوّرت تلك الخلافات بينهما فجأة إلى هذه الدرجة؟

زوبعة من الأفكار كانت تعصف بذهني بقوة لثوانٍ، وتحاول أن ترمي بي بعيداً عن الحدث الجلل، غير أني عدتُ إلى الواقع المرير أمامي على وقع صوت والديّ الهادر، وقد غطّى صراخهما المتبادل أجواء المنزل، لقد مرّت عدة دقائق من الأخذ والردِّ والاتهامات المتبادلة قبل أن نتمكن بصعوبة من تهدئتهما قليلاً لعلّنا نفهم منهما أي شيء.

يبدو أن الجو العام المسيطر على كل أفراد العائلة كان مشحوناً بالتوتّر الممزوج بالحزن بطريقةٍ غير مسبوقة إثر فاجعة وفاة خولة، ولم يكن هذا ليبرِّر بأيِّ حالٍ من الأحوال إقدام أبي على فعلته الشنيعة تلك بأمي، إنها المرة الأولى في تاريخ منزلنا الهادئ.

لطالما سمعت الكثير والكثير من تلك القصص الرهيبة أثناء طفولتي وصباي، قصص ضرب الأزواج لزوجاتهم أمام أبنائهما، بعضها كان لأقاربنا وأخرى لمعارفنا، وكنتُ أصابُ بدهشةٍ صادمةٍ واستهجانٍ مؤلمٍ جرّاء تلك القصص المؤسفة، إذ كيف يمكن لزوجٍ وزوجته وهما يمثّلان رمزيّة الأب والأم أن يسمحا لنفسهما تحت أي مبرِّر بفعل ذلك؟

كنتُ وما زلتُ أعتبرها جريمةً في حق الأبناء وحق المجتمع، أما أن تقع تلك الجريمة في منزلنا وبعد كل هذا العمر، فهو ما أعجز فعلاً عن تصديقه، ولكنه حدث بالفعل أمام عينيّ وبكل أسفٍ منذ دقائق..

– أعوذ بالله من الشيطان، أعوذ بالله من الشيطان.

كان أبي البادئ بالكلام بعد الصمت المؤقت الذي خيّم علينا جميعاً، بينما كانت أمي ترتمي في أحضان حنان وهي تنتحب، بعد أن فرغنا من الاطمئنان عليها ومساعدتها في الجلوس على

الأريكة المقابلة لنا:

- والله يا عيالي إني مدري شقول لكم؟

كان يقلّب بصره في وجوهنا المليئة بالصدمة وهو لا يزال ينتفض من فرط الغضب الذي يعتريه:

- حسبي الله عليها الي خلتني أوصل هالمواصيل وفي هالوقت الصعب، حدّتني على أقصاي، تبي تهدم بيتنا بيديها!

كان صوته يتهدّج في تأثّر عميق..

أطرق برأسه وفرّت دمعتان حارقتان من عينيه..

أُرتجَّ علينا عندما رأيناه على تلك الحالة، فلربما كانت تلك المرة الوحيدة التي نرى فيها أبي يبكي!

انكبَّ عليه عبد الله، وأخذ يقبّله مراراً على جبينه ويمناه وهو يحاول أن يطيّب خاطره المنكسر، وجلست أنا أيضاً إلى جانبه وحضنته وقلبي يعتصره الألم، وعندها فقط انبرت أمي تخاطبه وقد مدّت يدها مهدّدةً إيّاه، بينما شرار الغضب يتطاير من عينيها:

- اسمعني زين ولا ترمي بلاويك عليّ، ولا تطوّلها وهي قصيرة.

كانت تنظر إليه في تحدٍّ وجرأةٍ لم نعهدها قط:

- قدام عيالك كلهم، خلاص صاروا كبار ولازم يعرفون كل شي، لي سنين وأنا أطلبك تطلّقني يالـ..... وأنت تعيّي، وكنت أتصبّر وأقول لنفسي ما عليه، اصبري يا بنت عشانهم ولين يكبرون عيالك ومن هالحكي الي ما يفيد، لكن الحين وعقب ما خرّبتها ومدّيت يدينك عليّ يللي ما تستحي على وجهك، والله ثم والله إن تطلّقني يا راشد غصباً عن والدينك!!

كان أبي واجماً وقد هدأ تماماً، لم يرد عليها بكلمة واحدة، بل اكتفى بالنظر إليها محدّقاً.

تدخّلنا أنا وإخوتي من جديد لاحتواء الطرفين ومحاولة فهم أسباب الحادثة المفاجئة، وكنّا نتبادل الإشارات المبطّنة فيما بيننا التي تدلُّ على اتفاقنا بشأن إنهاء الموقف حالاً ونزع فتيل الخلاف، ظنّاً منّا أن طلب أمي الطلاق لا يعدو كونه ردّ فعل اندفاعياً يمكن تفسيره كأحد تداعيات الإهانة التي تعرضت لها للتوّ، وذلك في ظل حالة عدم الاستقرار الانفعالي التي تعيشها ونعيشها حالياً. لا بأس، بالتأكيد أننا سنتمكن من إصلاح الأمور بطريقةٍ ما وإرضائها لاحقاً حتى تمرّ هذه الأزمة العاصفة التي تجتاح منزلنا هذه الأيام، وكم كنا مخطئين في ذلك!

لم تمهلنا أمي ولا لحظة لنختبر قناعتنا هذه، لقد فجّرت الوضع حين ألقت بقنبلة من العيار الثقيل:

– اسمعوني يا عيالي، أنا انتظرت كل هالسنين عشانكم، كنت أبيكم تكبرون وتفهمون، كانت أختكم خولة الله يرحمها هي الي تأخر قراري، لأنها كانت صغيرة ولازم أصبر لين تكبر وتصير مثلكم، لكن الحين وبعد ما اختارها ربنا عنده والحمد لله على قضائه وقدره، صار لازم تعرفون كل شي.. أبوكم هذا الي مسوّي نفسه أب مثالي وزوج محترم كان أكبر نسونجي في مدينة الرياض!!

حبسنا أنفاسنا وهي تواصل قصفها:

– يا ما ويا ما قفطته أثناء علاقاته المحرّمة مع الـ..... من يوم تزوجنا، ولا عمره تاب ولا تعدّل، لين وصلت به الدناءة إنه يخونّي حتى مع الشغالة الـ...... الي مشيّتها.

التفتنا جميعاً كالحمقى إلى أبي الذي كان لا يزال يصوّب إليها نظراته الخالية من كل المعاني. أمسكت برأسي دون وعي، إذ لم أعد أدري هل أصدّق أو أكذّب كل ما أرى وأسمع في هذا اليوم الفظيع؟

هل هذا يُعقل؟ أبي؟ مثالي الأعلى في الحياة؟

خيانات جنسية؟ هل هذا يُصدّق؟

وسوهاتي؟ أمّنا الثانية التي لم تلدنا؟

أحسست لحظتها وكأن مطرقةً عملاقة قد هوت فجأةً وبكل قوة على رأسي المتشنّج.

شقّ جوّ الصمت الذي أطبق علينا صوت أمي وهي تواصل مفاجأتها وكشف المستور:

– كنت غبية وأسامحه في كل مرة يعتذر فيها ويدّعي إنها مجرد نزوة، كنت أبي أحافظ على بيتي وأطفالي، وأدعي الله الليل والنهار إنه يهديه ويتوب عليه من هالطريق المخزي، لكن ذيل الكلب أعوج وما يتعدّل، كان يشوف عياله يكبرون قدام عيونه ولا حمد ربه على نعمة الزوجة والأولاد، لأن شهواته أهم عنده منا كلنا، وآخر طوامه كانت الشغالة الـ..... الي فتحت لها بيتي واستأمنتها على عيالي، ومن يومها حلفت إني ما أعيش معه لو يذبحني، لكن صبرت لين تكبرون، وسبحان الله تحوّل حبّه إلى كره، سنين وأنا صابره عليه مع إني ما كنت أطيقه ولا أطيق وجوده في حياتي، وحاولت أتحمل طول هالسنين ولا أبيكم تحسوّن بأي شي، لكن الحين جاء الوقت الي أبرّ فيه بقسمي، إلى هنا وخلاص.. كفاية.

غلبتها الدموع فانخرطت في حالةٍ من النشيج الموجع، لا أعلم كيف تصرفنا في تلك اللحظة الاستثنائية، ولا أستطيع تفسير سلوكنا لحظتها، ففي حين تسمّر عبد الله جالساً بجانب أبي لا يلوي على شيء، لم نتمالك أنا وحنان أنفسنا فشاركنا أمي في البكاء بتفاوت بعد أن أحطنا بها، في محاولةٍ لمواساتها.

لقد كانت لحظةً خوفٍ غريبة يصعب عليّ وصفها، إذ لا أدري كيف نهضتُ وخطوت إلى أمي وحنان، فقد بدا كل شيءٍ أمامي لوهلة وكأنه غير حقيقي!

نوبة من التشتّت الذهني والاضطراب الجسدي سيطرت عليّ، لقد شعرت بأنفاسي تخبو وكأنني أختنق، كنت أشعر أنني على حافّة الانهيار، كما كنت أحسّ باقتراب الموت مني أو شيء قريب من هذا، لستُ أدري لأني لا أستطيع وصف ما حلّ بي بدقة.

لقد كان كل جزءٍ من جسمي المُتثاقل ينتفض على طريقته الخاصة، وأُصبتُ بما يشبه الوهن المتعاظم، بينما كانت أسناني تصطك بلا توقّف، أما قلبي فقد كانت تتسارع نبضاته ثم يكاد يتوقّف، ويعاود الكرّة مجدّداً وهكذا بلا توقّف، وفجأة، لم تعد تحملني رجلاي، فانهارتا.

وجدت نفسي أجثو على ركبتيّ عند أقدام أمي، وقد ألقيت برأسي في حضنها، مغمض العينين المترعتين بالدموع الحارقة والوجع المُمضّ، وفي الحقيقة، كنت أتشبّث بها وأنا أرتعد كطفلٍ خائف يخشى من رحيل أمّه دون عودة، كنتُ أختبئ في حضنها هرباً من خوفي وبحثاً عن الأمان، وبدلاً من أن أحنو عليها في لحظتنا العصيبة تلك، وجدتها هي من تحنو عليّ، وتمسح على رأسي وكتفيّ، وكأنها قد شعرت بخوفي واحتياجي لها وهي على تلك الحالة..

قد أتهم أمي ويتهمها غيري بالأنانية، ولكنها في المواقف العصيبة التي تنسى فيها نفسها، مثل هذا الموقف، تعودُ أمّاً حقيقية. إنه إحساس الأم الذي لا يشبهه إحساس في هذا العالم، إنه قلب الأم الذي لم يُخلق مثله قط، إنها الأم، جنة الله في أرضه!!

مرّت خمس دقائقٍ أخرى على الأقل ونحن لا نزال على نفس حالتنا المزرية تلك، تجاوزت خلالها نوبة الموت التي انتابتني بلا سبب.

لقد ثبت لي بعد هذه المفاجأة الكبرى الأخيرة أن الصدمات قد صرعتنا بالفعل، وبالضربة القاضية. لم ألتفت إلى أبي مطلقاً وأنا أغوص مستسلماً في حضن أمي.

فجأةً، أقبل صوت أبي مجلجلاً كالصاعقة من خلفي:

- يا منيرة بنت عبد العزيز.. إنتي طالق!!!

عندما استوعبت ما قاله تماماً، ورفعت رأسي أنظر خلفي ببلاهةٍ بعد أن نظرت إلى وجهي أمي وحنان الصامتين.. وجدته قد غادرنا.

(6)

أعتقد أن اللحظة المناسبة قد حانت أخيراً، لحظة الكشف لحنان عن نفسي، وعن حبي لها وتعلقي بها، لن أجد توقيتاً أفضل على ما أظن.

لقد مرّ عليّ قرابة الأسبوع منذ سكنت معها في غرفتها ومع عائلتها في دارهم هذه، ولا بدّ أن أعترف أن ما يتمتعون به من رفاهيةٍ تفوق الخيال وما يستخدمونه من أدواتٍ عجيبةٍ أخترعها الإنس قد أثار في نفسي كل آيات الانبهار والذهول، ولكنّي في ذات الوقت لن أخفي ضجري وقرفي من حياتهم الصناعية والزائفة التي يحاولون إقناع أنفسهم بتطوّرها ورقيّها، لقد تحمّلت كل شيء لم يعجبني هنا من أجل عيني حنان الساحرتين فقط، إذ لم يسبق لي أن سكنت دار أنسيٍّ من قبل، إنه بالفعل أمرٌ لا يُطاق بالنسبة إليّ، هذا شأنهم بالتأكيد، ولكني لا أعلم كيف يتحمّلون كل هذا القدر من الحياة البائسة!

لقد اضطررت إلى الانتظار هذه الأيام الثلاثة الأخيرة منذ رحيل أمها عن الدار بعد تلك الليلة العاصفة، وذلك طمعاً في اقتناص الفرصة الملائمة حين تخلو الدار أخيراً من الجميع إلا منها، وها هي الآن قد حانت تلك الفرصة وعلى طبقٍ من ذهب، ولا أنوي أن أضيعها أبداً.

أعترف أنني ولأول مرةٍ في حياتي الطويلة والمُتقلّبة أشعر بكل هذا القدر من الخوف والتأزّم، أخشى كثيراً من ردّة فعلها عندما أصارحها بما يعذّبني ويؤرّقني منذ أول لحظةٍ وقعت عليها عيناي، لست أدري ماذا ستفعل ولا كيف ستتصرّف؟

لقد سمعتُ مراراً عن مثل هذا النوع من العشق الغرائبي، عشق الجن للإنس، ولكني لم أكن مهتمّاً يوماً بسماع تلك القصص وتفاصيلها وما آلت إليه, بل لعلّي كنتُ أسخر كثيراً من أولئك النفر

من الجن العشّاق، وربما اتهمتهم بالسخافة والدناءة، إذ لم أكن لأتصوّر كيف يضعف أحدهم إلى درجة أن يسقط في غرام إنسيّة!

ولم أكن أستطيع فهم من كانوا يحذّروننا من سحرهنّ وعظم تأثيرهنّ على من يسيطرن عليه عن طريق الحب، أما الآن، والآن فقط، فقد عرفت كل شيء.

وبرغم ذلك كله، سأصرخ بملء فمي: سحقاً لمعشر الجنّ كلهم ومعتقداتهم، وأوّلهم أنا!

ذلك أن حديث هؤلاء المتحذلقين من بني الجن هو حديث من لم يقترب طوال حياته من إنسيّةٍ قط، وتحذيرات من لم يعرفهنّ حق المعرفة، وخيالات من لم يعايشهنّ بتفاصيلهنّ، وهذيانات من لم يتأمّل جمالهن.

هؤلاء قومٌ لم يجربوا ما جرّبته، ولم يقتربوا من إنسيّة قط، وبالطبع لم يكتووا بما كوتني به أميرة قلبي حنان!

هؤلاء لم يتركوا ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم وكل هذا العالم خلف ظهورهم مثلي، من أجل عينيها فقط، لم يقضوا كل هذه الأيام مثلي وأنا أتجوّل حولها وفي حماها، لم يسكنهم الأرق أياماً وليالي مثلي وأنا أتملّى هذه الحسناء، وأراقب في وجدٍ ما تصنعه في كل لحظةٍ من حياتها، حين تتحرّك وحين تجلس، حين تصحو وحين تنام، حين تحكي وحين تصمت، حين تفرح وحين تحزن، حين تتأنّق وحين تتعرّى.

إنني أعلنها مدويّة ولا أتردّد، لقد تمرّدت عليهم وكفرت بمعتقداتهم، ولو خُيّرت لاخترت أن أكون إنسيّاً، لا من أجل الإنس الذين لا ولن يعنوني في شيء، بل من أجلها هي فقط، من أجل حنان، حنان التي لا أراها إلا آية الجمال الإنسيّ، الجمال العربي، الجمال السعودي، الجمال النجدي.

لقد اتخذتُ كل الاحتياطات اللازمة لموعد غرامي الأول، تجوّلت سريعاً داخل المنزل ثم تأكّدتُ أن سيارتي عبد الله وطارق اللذين غادرا تباعاً ليستا خارج المنزل، وبالطبع، فإن أباها الذي سافر هارباً من فضيحته المدويّة قبل يومين في اليوم التالي لرحيل أمها عن المنزل بعد الطلاق، لن يعود هذه الليلة.

أغلقتُ باب غرفتها بالمفتاح وخبّأته جيداً في الحمام الذي يتصّل مع غرفة نومها ببابٍ خشبيّ، كل ذلك بعد أن تشكّلت على هيئتي الإنسية كشابٍّ يفيض وسامةً ورجولة، ولم أنسَ أن أتأنّق كما لم أفعل من قبل قط، إنني أدعو الله ألاّ تطول صدمتها وذعرها مني عند رؤيتها لي لأول مرة، فأنا لم أعد قوياً كما كنت في سالف عمري، وقياساً على آخر تجربةٍ لي منذ أعوام، فإني أخشى أنني لن أستطيع الصمود على هيئتي الإنسية هذه أكثر من ساعة.

آهٍ يا هوشيار، أنت تعلم علم اليقين أنّه لن يكون موقفاً سهلاً، ولكن من قال إن الأمور العظيمة في حياتنا ميسّرة وسهلةً؟

فهذا شاعرهم العربي العظيم المتنبّي يوافقني الرأي حين يحدّث نفسه في ذلك البيت الخالد من عيون الشعر العربي:

«تريدينَ لُقيانَ المعالي رخيصةً

ولا بدَّ دونَ الشهدِ من إبرِ النحلِ»

اقتربت من سريرها قليلاً، وبدأت في مناداتها باسمها بصوتٍ خافت، مرة ومرتين وثلاث، ولكنها لا تزال نائمة كأميرة الغابة، أضأت أنوار الغرفة ورفعت صوتي قليلاً، ففتحت ببطءٍ عينيها، ثم التفتت نحوي، وأبصرتني لثوانٍ وأنا أقف في منتصف غرفتها وأنظر إليها مبتسماً، وقد أدهشتني حتى النخاع ردّة فعلها الأولى!!

لم تصرخ ولم تفزع كما توقّعت، كل ما فعلته أنها أشاحت بوجهها عنّي، وشخصت ببصرها إلى السقف، ربما لم تستوعب بعد ما يحدث، بل هذا هو المؤكد، لا بدَّ أن ما ألمَّ بها وبعائلتها مؤخراً من المصائب المتعاقبة قد أدّى إلى انهيارها بهذا الشكل، وأظنّ أنه كفيلٌ بانهيار أعتى الرجال فضلاً عن فتاةٍ رقيقة مثل حنان، لم تجرب أوجاع هذه الحياة بعد، يكفيها حزناً وهمّاً مغادرة والديها المفاجئة للمنزل بعد طلاقهما، وما رافقه من فضيحةٍ مدويّة.

إنني أشعر بالأسى تجاه فتاتي الأثيرة، ولكن نداء الحب الذي يقضّ مضجعي لا يحتمل التأخير أبداً، ولذا، منحتها متّسعاً من الوقت لعلها تستوعب الموقف، ثم عاودت الكرّة مجدداً، كرّرت

النداء عليها بصوتٍ أكثر وضوحاً هذه المرة، وللمفارقة، فقد أصبتُ أنا لا هي بالصدمة حين فاجأتني وخاطبتني بعد برهة دون أن تنظر إليّ:

– نعم، من أنت؟

أربكتني بحقّ، لقد كنتُ متحفّزاً تماماً لاحتوائها وربما لاحتضانها عندما تقفز من سريرها صارخةً والرعب يملأ كيانها، وذلك كأيّ إنسيٍّ يرى جنياً على الطبيعة لأول مرةٍ في حياته، ولكن أيّاً من ذلك لم يحدث، يا لمنتهى الغرابة..

استغرق مني الذهول لحظاتٍ قبل أن أعيد ترتيب أوراقي التي بعثرتها دون أن يغمض لها جفن:

– أنا هوشيار العاشق.

نطقت اسمي هكذا دونما قصد، لأتلقّى صدمتي الثانية منها، فقد ابتسمت مطوّلاً قبل أن تسألني:

– أنا أعرف كاظم الساهر لأنك تشبهه فعلاً، أما هوشيار العاشق.. فهذي جديدة.

أحسستُ براحةٍ كبيرة وفرحٍ لذيذ يسريان في داخلي عقب دعابتها الأخيرة، وتلاشي التوتّر الذي كان يفرض سيطرته عليّ منذ البداية، ولم أعد أكترث بتفسير حيثيات ردّة فعلها العجيبة، بادلتها الابتسام وأنا أجاهد لأقلّد صوت كاظم الساهر الذي خطر لي أنه من مطربيها المفضّلين، وبدأت أغنّي لها ذلك المطلع الذي لا أحفظ سواه:

– زيديني عشقاً زيديني، يا أحلى نوبات جنوني.

– وصوتك حلو، ويشبه صوته بعد.

– إنه مطربي المفضّل.

– حتى أنتم يالجن تنطربون على الأغاني مثلنا؟ وأنا مثلك أحب كاظم الساهر خاصةً الي من شعر نزار قبّاني، يا أروع جنّي.

هكذا إذن، لقد كانت تعلم منذ الوهلة الأولى أنني جنيّ، كانت تلك اللحظة التي التفتت فيها إليّ من جديد، نظرت وهي لا تزال مستلقيةٍ على سريرها وكأنها تتفحّصني من رأسي وحتى أخمص قدميّ، لقد أربكتني المفاجأة لوهلة، إذ بدا الأمر وكأنها تعرفني شخصياً أيضاً، ما الذي يجري بالضبط؟

وجدتها فرصةً ذهبية، فاقتربت منها أكثر، وجثوت على ركبتيّ، والتقت عيناي بعينيها تماماً ولأول مرة منذ رأيتها عند البحيرة، سحابةٌ من المشاعر الدافئة غمرتني للحظة قبل أن أردّ:

– وهوشيار العاشق تحت أمرك دائماً.

– ليه تتكلم كذا بالفصحى؟ ما تعرف تحكي مثل حكينا؟

– للأسف، هذه لهجة لساني منذ ولدت، ولكن إن شئتِ سأحاول أن أتعلّم لهجتك من أجلك.

– لا لا، لهجتك كذا مختلفة وجميلة.

– أشكرك من قلبي.

– ودّي أعلمك بشي غريب جداً يا هوشيار.. تدري إني أعرفك؟ أقصد إني شفتك أكثر من مرة بالحلم مثل ما أشوفك الآن قدامي، الحقيقة إنها كانت رؤيا متجلّية مب مجرد حلم عابر، تكلمنا كثير وعرفت عنك بعض الأشياء اللي أعجبتني فيك، ويوم قعدت من النوم جاني إلهام قوي من الله إن اللي شفته بيتحقّق قريب، وعشان كذا ما استغربت وجودك قدامي الآن!

تشجّعت أكثر وجلستْ على طرف سريرها وابتسامتها الساحرة تطغى على كل مشاعري، فأردفت:

– وبصراحة أكثر ويمكن تنصدم، أعترف لك إني حاسة كأني حبيتك من أول لقاء لنا بالرؤيا.

ما إن أنهت جملتها حتى تملّكني شعورٌ غريب، شعورٌ لا يشبهه شعور، شعرت وكأنني مخلوقٌ مختلف لا علاقة له بهوشيار الذي أدّعي أنني أعرفه تماماً، مخلوقٌ راقٍ لا هو من الجن ولا حتى من الإنس..

ربما هو أقرب إلى الملائكة!!

***

كيف أنساك؟

(7)

اختفى هوشيار فجأةً كما ظهر، كان آخر ما قاله لي:

«أحبك»..

ثم تلاشى وكأن العدم قد ابتلعه، ومع أنني كنت متأكدة سلفاً من ظهوره في حياتي بطريقةٍ ما بعد تلك الرؤيا الصادقة، ولكن الواقع أحياناً قد يكون أغرب من الرؤى!

كنت أشعر في كل دقيقةٍ مرّت علينا طوال لقائي به وكأنني كنت أحلم بالفعل، ولولا ظهور مفتاح باب غرفتي بعد اختفائه وهو يطير في الهواء قادماً من الحمام ليوضع بكل سلاسة في مكانه داخل مقبض الباب، لما صدّقتُ عينيّ اللتين رأتا هذا العرض السحري المدهش، إنّ مشاعري مختلطة بشدّة في هذه اللحظة. ولكنها، ولن أنكر، كانت لحظات رائعة بطريقةٍ لا يمكن تصديقها، وربما أعزو ذلك إلى أن ظهور هوشيار في هذا التوقيت بالذات رحمة من رحمات المولى، ليخفّف عنّي ما أثقل كاهلي من همّ وضياع، ليسلّيني ويعوّضني بعض من فقدتهم من الأحباب في غمضة عينٍ، خولة ثم أمي وأبي، وإن كان رحيل خولة هو الأعظم بلا شك، فهو على الأقل رحيلٌ قسري وأبديّ لا أملك إزاءه إلا التسليم به والرضا بما قدره الله أولاً وأخيراً. أما رحيل والديّ فقد كان اختيارياً برغم أنه مأساوي، ولعلّي أعتبره من قبيل المضحك المبكي في هذه الحياة، ولأني لا أجد لهما العذر في ما فعلاه بنا وفي هروبهما الموجع من المنزل بهذه الطريقة دون حتى توديعنا، فقد أخذت عهداً على نفسي بأني لن أسامحهما، ولن أبحث عنهما، ولن أتعب نفسي أكثر من ذلك في التفكير فيهما، وقبل هذا وذاك لن أحنث في عهدي بأنني لن أسامحهما. وأما قرار عبد الله وطارق أثناء اجتماعنا الليلة البارحة بالتواصل معهما ومحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فلا شأن لي بذلك القرار، لأني قد اتخذت قراري الخاصّ الذي اخترته بملء إرادتي، وسأمضي في حياتي بوالدين أو

بدونهما مثل كثير من القصص الناجحة التي نسمع عنها، لست الأولى في هذا ولن أكون الأخيرة بالطبع.

لقد تألّمت وعانيت بما فيه الكفاية من علاقتهما ببعضهما وبنا أنا وإخوتي منذ طفولتنا، ودون طائل، ولن أكون أكثر حرصاً منهما على هذه العائلة واستقرارها، لا سيّما وأن أمامي مستقبلاً واعداً يجب أن ألتفت إليه، وحباً حقيقياً يلوح في الأفق لا أنوي التخلّي عنه.

التفتُّ حولي للمرة الثانية، أين اختفى هوشياري العاشق؟

كل ما أخشاه في هذه اللحظة أنه يراقبني الآن من حيث لا أراه، وأنه يستطيع قراءة أفكاري أيضاً، هل يا ترى يستطيع ذلك فعلاً؟

لا لا، لا أعتقد ذلك، لا أعتقد أن للجنّ قدراتٍ خارقةٍ قد تصل إلى هذه الدرجة، فهذا من تخاريف العقلية الشعبية والتراثية فقط، إنه في النهاية مجرد جنّي لا أكثر..

وإن كان أوسم وأرقّ جنّي ظهر لبشر!!

هل يكتب لي القدر أن أقع في غرام جني؟ وما الذي يمنع حصول ذلك رغم غرابة الأمر، فالغرائب في هذا العالم لا تعدّ ولا تحصى كما أعلم ويعلمون، فالذي أعلمه جيداً أنني مميزة عن جميع قريناتي في أشياء كثيرة، ولكن إن تطوّرت الأمور في قادم الأيام إلى ما أتوقعه، فلربما أتميّز عنهنّ أيضاً في قصة حبي، وهذا هو بالضبط كل ما أحتاج إليه في حياتي، من يدري؟

والأيام دوماً حبلى بالمفاجآت.

حانت ساعة خولة اليومية، فتسلّلت سرّاً كما جرت العادة خلال الأيام الماضية إلى غرفتها، وذلك تنفيذاً لعهدي الغليظ الذي قطعته على نفسي.

وفي الحقيقة، فقد توقّفت للحظاتٍ أمام باب جناح والديّ المجاور لغرفة خولة قبل الدخول إليها.. ما هذه المفارقة لأصحاب تلكم الغرف المتقاربة؟

هؤلاء قاتلوا من أجل مغادرتنا، وبلا عذر!

وهؤلاء غادرونا وهم يقاتلون على البقاء معنا!

كانت زيارتي هذه المرّة إلى غرفة خولة مختلفةً بعض الشيء عن كل الزيارات خلال الأيام القليلة الماضية، وكأنني أزورها لأول مرة منذ رحيلها، ولا غرو، فمزاجي الحسن جرّاء لقاء هوشيار ما زال يسيطر عليّ، وإن كان اختفاؤه بتلك الطريقة الغامضة لم يعجبني كثيراً، ولكن كما يُقال فإن؛ «حجّة الغايب معه»..

ثم إنّه غدا واضحاً لي من تمتمات قلبي المنغّمة منذ التقائي به هذا المساء الاستثنائي أنّه يجوز لهوشيار ما لا يجوز لغيره!

هكذا وببساطة وبلا شرحٍ ولا تعليل!

لقد استغللت تلك الطاقة الإيجابية والمعنويات العالية، اللتين أحسّ بهما تكادان أن ترفعاني قليلاً عن الأرض، في تجميع ملابس خولة المنثورة في أرجاء الغرفة، وإعادتها إلى أماكنها في الخزانة بعد ترتيبها، كما عكفت على توضيب كتبها المدرسية على طاولتها على النحو الذي كانت تحبه، وفتحت أعلى الأدراج الجانبية للطاولة ووضعت هاتفها الجوال الذي لم يكن يفارقها لحظةً فيه.. كم كانت تحبه وتعتني به بطريقةٍ جنونية، حتّى أنها كانت تحرص على تزيينه بمختلف الإكسسوارات ليظهر في حلّةٍ جديدة كل شهر.

واصلت بحثي عن الأشياء التي قد تحتاج إلى تنسيق في تلك الأدراج، وبالمصادفة وقعت على دفتر خواطرها الخاصّ التي كانت تخطّها بيدها يومياً كما يبدو، وهي عادةٌ مألوفةٌ قلّما تنجو منها مراهقة، وما زلت أنا شخصيّاً أحتفظ بثلاثة دفاتر للخواطر تثير ضحكي كلّما عدتُ لتصفحها بعد مرور كل تلك الأعوام.

ما أثار دهشتي وجعلني أعتبر هذا الأمر غريباً بعض الشيء هو أن خولة لم تخفِ عني طوال حياتها ومنذ طفولتها المبكّرة شيئاً، مهما كان خاصّاً، لأنها تعتبرني أختها الوحيدة ومربيّتها الحقيقية ومستشارتها المفضّلة وصديقتها الأقرب إلى قلبها، فضلاً عن كوني مستودع أسرارها وبئر خفاياها التي لا قرار لها، ومع هذا كلّه، ها أنا أكتشف أنها لم تطلعني قط على هذا الدفتر بالذات!

عجيب، لا بدّ أنّه يعجّ بما هو أكبر من تلك الأسرار والمفاجآت المتوقّعة من فتاةٍ في مثل عمرها، للتوّ انضمّت إلى الصف الأول المتوسط، وبالكاد تتلمّس خطواتها الأولى على طريق المراهقة غير المعبّد، سوف أرى بنفسي ماذا كانت تخبّئ عنّي..

– أليس هذا تجسّساً يا جميلتي؟

أرعبني بحقّ صوت هوشيار الهامس من خلفي وأنا جالسة على كرسي الطاولة، حتى إني رميت بدفتر خولة وكدت من فرط فزعي أسقط بعنفٍ على الأرض لاختلال توازني وأنا أحاول القفز من على الكرسي، لكنه أمسك بي وثبّتني عليه وهو يضمّني بقوة من الخلف، لقد سرى في كل جسدي ما يشبه التيارٌ الكهربائي الخفيف والممتع الذي بدّد رعبي وهدّأ من روعي على الفور بمجرد إحساسي بأنني بأمانٍ بين ذراعيه القويّتين.

ماذا يمكنني أن أقول غير أنه لم يكن إحساساً عادياً..

إن التصاق جسدي بجسده الحاني وهو يطوّقني من ورائي كطفلةٍ مدلّلة وعطره الأخّاذ يعبق برأسي عبر أنفاسي لم تكن لحظةً عابرةً يمكن نسيانها، لعلّها كانت لحظة اللحظات..

– بسم الله عليّ.

– أعتذر بشدّة، لم أقصد إخافتك يا حبيبتي.

كان يواصل همسه في أذني هذه المرة وقد ألصق خدّه بخدّي، كنت أحاول أن أتماسك وأنا أبادله الهمسات:

– ولا يهمّك.

– يبدو أنني أخفتك الآن أكثر من لحظة ظهوري لك هذا المساء!

– تبي الجد، إيه فعلاً روّعتني حيل، لأني كنت مركّزة على تصفّح هالدفتر.

أشرتُ بيدي إلى دفتر خولة الذي سقط أمام الطاولة على الأرض، فتركني هوشيار وأنا أتابعه بعينيّ اللتين تنضحان إعجاباً به، انحنى لالتقاطه ثم وضعه على الطاولة أمامي واتّكأ بيمناه على طرفها، وابتسم في لطفٍ ساحر:

– أعتذر ثانية، لقد كنت أحاول أن أمازحك فقط.

– قلت لك بسيطة يا قلبي، لكن تعال هنا، أنت وين اختفيت عني؟

– دعيني أوضّح لك حقيقة الأمر، أنا لم أغادرك لحظة منذ رأيتِني بل بقيت معك في غرفتك، ولكنّي آثرت أن أثير فضولك فاختفيت فقط عن ناظريك!

– معليش ما فهمت، شلون اختفيت عني وأنت معي؟

– سأشرح لك، نحن نستطيع التواجد حولكم معشر الإنس على هيئتين، نستطيع الانتقال بينهما بكل حرية، الأولى هي هيئتنا الناريّة الأصلية التي خلقنا الله عليها، ونكون فيها مستترين عن أعينكم وإن كنتم تستطيعون خلالها الإحساس بنا تماماً وكأنكم تروننا، أي بإمكانكم خلالها الشعور بوجودنا ولمسنا وسماع أصواتنا.

– عجيب، أول مرة أعرف هالشي! طيب، وهيئتكم الثانية؟

– هيئتنا المرئية التي نستطيع خلالها التشكّل لترونا على أي صورةٍ نشاء، ولكننا نفضّل دوماً الهيئة الإنسيّة على أيّ هيئةٍ أخرى مثل التشكّل كالحيوانات أو غيرها.

– من أغرب ما سمعت بحياتي!!

– مع العلم أننا في الهيئتين نستطيع أن نراكم، كما أنكم تستطيعون الإحساس بنا أيضاً والحديث معنا في الحالتين.

– إذاً، أنتو مب أطياف أو هالات ولا تقدرون اختراق الأشياء الماديّة أو الحركة خلالها؟

– أصبتِ.

– أجل ودّي أفهم، كيف دخلت إلى هنا؟

– عندما فتحتِ الباب دخلت ورائك مباشرةً قبل أن تغلقيه!

– معقولة؟

– قلتُ لكِ، أنا لم أغادركِ منذ وقعت عيناي عليك عند البحيرة التي غرقت فيها خولة، أي منذ أكثر من أسبوع!

– من جدّ؟ يعني كنت تراقبني وشفت كل شي من ذاك الحين؟

– أجل، وكم كنت محظوظاً بذلك، لأني رأيت أجمل مخلوقٍ وقعت عليه عيناي في كلّ حالاته، ولذلك وقعت في غرامه.

– يا لبى قلبك!

– هذه هي الحقيقة كما أشعر بها يا حنان.

– يعني كل هالوقت وأنت معانا بالبيت وعايش حولي؟

– كنت أستمتّع بمراقبتك طوال الوقت، حتى أثناء نومك كنتُ أتأمّلك بالساعات ولم أذق طعم النوم أو الطعام أبداً.

– أنتو تنامون وتاكلون وتعيشون مثلنا بعد؟ أجل كل هذي القصص والخرابيط الي تنقال عنكم مب حقيقية أبداً.

– هذا صحيح، وما أكثر ما يُشاع عنا من الأكاذيب منذ القدم من قبل معشر الإنس!

قالها ومسحةٌ من الانزعاج تطوف بملامح وجهه الوسيم. وقفت واقتربت منه وبادرت إلى احتضان يديه بيديّ، ثم ابتسمت له وأنا أنظر بشوقٍ إلى عينيه..

– أجل أنت اختفيت عن عيني بس ولكنك كنت تراقبني؟ يلا اعترف.

– لم ولن أفارقك لحظة يا حنان، لأنني أحبك حباً عظيماً ستكتشفين مقداره مع الأيام، لقد تركت كل عالمي من أجلك ومن أجل البقاء معك.

– إلى هذي الدرجة يا هوشيار؟

– وأكثر، أقسم لك.

جذبني في رقّةٍ إلى حضنه الدافئ الذي لا يشبه إحساسه الغامر شيءٌ في هذه الدنيا، لم أكن أرغب في مغادرته ما تبقّى من عمري، لقد نسيت في لحظتها كل حزني وتعبي وهمومي وكأنني قد وُلدت من جديد. طبع قبلةً ناعمةً على خدّي ثم هيّج حرائق الحب التي اندلعت للتوّ داخل قلبي الغضّ حين رمقني بعينيه السوداوين الفاتنتين وهو يعترف:

– حبيبتي حنان، لقد عشتُ ما يكفي في هذه الحياة، وأقسم أنه لم يعد يهمّني فيها إلاّ أنتِ فقط.

– وأنا بعد، تأكّد إني أحبك مثل ما تحبّني يا بعد هلي.. والله إني حبيتك من يوم شفتك كذا مرة في الرؤيا بطريقة ما أقدر أفهمها، ولا يهمني أفهمها بعد. وصدّقني إن هالموضوع ربّاني وفوق إرادتنا، وما أقول إلا سبحان من قذف بحبك بهالسرعة في قلبي.

– إذاً، منذ هذه اللحظة، لننسَ أننا من الجن أو من الإنس، ولنتذكّر فقط أننا عاشقون!

لم نتمالك أنفسنا، فصمتنا وأكملت سيمفونيات القبل ما تبقّى من نجوانا.

(8)

كانت سمر تصرّ طوال الأيام العصيبة السابقة على التواصل معي ليلياً لتطمئنّ عليّ وتؤازرني في محنتي، ومع أنني لم أكن في أفضل حالاتي، ومع أن مزاجي المتعكّر كان يوسوس لي مراراً بالتهرّب منها، إلاّ أنّها وعلى الرغم من سخافتي تحمّلتني، لا كحبيبةٍ فقط، بل كأفضل صديقٍ قد تلجأ إليه في وقت الضيق والشدّة.

في كل ثقافات العالم التي أعرف؛ أن يهتم الرجل بالمرأة التي يحبها، فيبادرها ويدلّلها ويعرف كل صغيرةٍ وكبيرةٍ عنها ليرضيها ويفعل ما بوسعه ليثبت لها حبه ويحوز قلبها؛ كل ذلك وإن كان رائعاً إلاّ أنه يعتبر أمراً بديهياً وهو الأصل في العلاقات العاطفية، أما أن يحدث العكس وفي ثقافةٍ كثقافتنا، فهو ما يمكن أن أسمّيه؛ الحب العظيم!

وهو تماماً ما كانت تشعرني به حبيبتي سمر، وبعبارةٍ أخرى، أعترف بأنني لم أكن أعلم ماذا سيحلّ بي لولا حنانها واهتمامها البالغين اللذين أثبتا لي حقاً عظم حبها، بعيداً عن النزوات والرغبات العابرة.

كنت أجلس وحيداً كئيباً في غرفتي بعد أفول النهار ومع بدايات المساء، ألوك الذكريات التعيسة وهمومي تحاصرني من كل اتجاه، شعرت بأني قد وصلت إلى أسفل دركات الهمّ والسأم والضيق خاصةً بعد مغادرة أمي ثم أبي للمنزل، هكذا دون سابق إنذار، وقد عبّرت عن ذلك كلّه خلال مكالمتي الليلية مع سمر، فما كان منها إلاّ أن غمرتني بحبّها وهوّنت عليّ الأمر، ثم طلبت لقائي مباشرةً من خلال جولةٍ خاطفة لا تتجاوز الساعة، (نهجول) فيها بالسيارة ونطوف شوارع الرياض المزدانة ليلاً، وذلك من باب تغيير الجو على حدّ وصفها..

هذا ما أعنيه عند الحديث عنها، فهي – لا أنا – من بادرت كعادتها إلى دعوتي للتنزّه وإخراجي من كهف مزاجي المتعسّر، وقد نجحت في ذلك أيّما نجاح، إذ تغيّر مزاجي حالاً بعد مكالمتها، وانقلب من كدرٍ إلى فرح ما بين غمضة عينٍ وانتباهتها، ولأول مرةٍ منذ رحيل خولة.. إنها حقّاً أنثى الفرح والفَرَج!

لقد تذكّرت وأنا أرتدي ملابسي منطرباً من بعد همّ ذلك البيت الخالد الذي أحبّه:

«وإذا الهمومُ استفردتْ بكَ ليلةً

بشراكَ في الصبحِ بجيشِ الفَرَجِ!»

التقطتها بسيارتي من أحد المولات الكبيرة المجاورة حسب الموعد، كانت مجرّد رؤيتها وهي تخطو بدلالها التلقائي الذي لا يفارقها كفيلاً بتحويل أجواء سمائي التي كانت ملبّدةً بغيوم الكدر السوداء إلى سماءٍ قشيبةٍ كسماء جنات عدن، أجل، تلك اللمحة الباسمة من عينيها الذبّاحتين كانت كافيةً لتبديد بقايا جحافل الهمّ التي جثمت على صدري منذ حين.

وما أن استقرّت بجانبي وسلّمتني كفّها المترفة لأصافحها حتى انطلقنا والفرح يظلّلنا بألوانه الزاهية، حتى أني شعرت لوهلة أن سيارتي أيضاً في مزاجٍ مغاير؛ وكأنها كانت تودّ الانطلاق بنا دون تدخّلٍ مني، ما جعلني أشكّ أن سيارتي تريد أن تقول لي:

«استمتع باللحظة يا طارق، أنا أيضاً في أفضل حالاتي يا صديقي!! »

تجوّلنا في هدوء خلال شوارع حيّ العليّا، ولم أنسَ أن أعزمها على تناول كوب من القهوة في أحد المقاهي الفاخرة بشارع التحلية الذي كان يضجّ بالحياة والجمال، ولكنها فضّلت أن نأخذ كوبي قهوتنا عبر طلبات السيارات ونواصل جولتنا الماتعة.

ابتدأتني بحديثها الذي لا يُملّ؛ تارةً تسألني عن حالي باهتمام وعن تفاصيل أيامي التي قد لا أُلقي لها بالاً، وتارةً أخرى تحدّثني عن فلسفتها الخاصة في التعامل مع الأحداث الصعبة في حياتها، وفي معرض حديثها ذكرت لي سرّاً يخصّها لم أكن أعلم عنه شيئاً..

– ودّي أكشف لك عن معاناة مرّت عليّ شخصياً ولا زلت أحاول أقاومها وأتأقلم معها من صغري.

– يا ليت.

– تدري يا طارق إني قضيت جزء كبير من طفولتي منوّمة في المستشفيات بسبب إصابتي بفقر الدمّ المنجلي!

– معقولة، أول مرة أدري.

– تخيّل، كنت أتنوّم بشكل متكرر كل فترة بسبب نوبات الألم الرهيبة، وكل مرّة ينقلون لي دم وأتبهدل بشكل يمكن ما تصدّقه.

– يا حياتي، إلى هالدرجة؟

– وأكثر، لكن ولله الحمد، من بديت أكبر شوي تحسّنت الأوضاع بشكل كبير، وإن كنت لا أزال أعاني لكني مصرّة أقاوم وانتصر.

– كل هذي المعاناة ولا فكّرتي تعلميني!

– لا تتضايق مني، أنا كذا يا طارق، عمري ما حبيت أزعجك أو أزعج كل الي يحبوّني ويعزوّن عليّ بمعاناتي الخاصة، أبي الجميع يظلون سعداء بدون نكد.

– كلامك جميل، لكن أشوف إنك غلطانة في إخفاء هالسرّ عنّي أنا بالذات، لأنك تعرفين إنتي وش تعنين لي.

– فكرتي عن الوجع والصعوبات الكبيرة في الحياة معقّدة شوي ويمكن تتفاجأ منها.

– حاب أسمع، يمكن أستفيد منك.

– مثلاً، لو علّمتك من أول عن هالشي المزعج، هل تتوقّع إنك تقدر تسوي لي شي أكثر من الطب، ولاّ بنكّد عليك وبس؟

– الموضوع مب كذا يا عمري.

– صدّقني كذا وأكثر يا قلبي، أنا مؤمنة إن كل واحد منا عنده معاناته الخاصة ولازم يتغلّب عليها بمفرده بعد الاستعانة بالله، وإذا ما حاولت تهرب من وجعك بالانطلاق في الحياة ونثر السعادة على الي يحبونك بدون ما تشعرهم بوجعك فتأكّد إنك راح تزيد معاناتك وبنفس الوقت بتخليهم يعانون معك.

– قناعاتك هذي عجيبة وأحترمها، لكنّي ما أتّفق معها.

– صدّقني لو اقتنعت فيها وطبّقتها بحياتك بتشعر بسعادة لا توصف برغم الوجع.

– يعني ما ودّك إني علّمتك بالمصايب الي تولّجتني طول هالأيام الماضية؟ هل هذا معنى كلامك؟

– لا يا عمري، والله أنا ما أقصد أبداً هالشي.

– ما عرفت لك، كذا فهمت منك.

– أنا أقصد يا حبيبي إنك تهرب من وجعك بالانغماس في الحياة وعدم الاستسلام للحزن مهما تكالبت عليك المصايب، أما قناعتي بأن الواحد المفروض ما يضايق حبايبه بالفضفضة فهذا مستوى آخر تماماً، ممكن يناسب بعضنا ولكن ما ينفع أبداً مع البعض الآخر، بالعكس هذولا بالذات لو ما فضفضوا بيتعبون أكثر.

– وأنا برأيك من أيّ الفريقين؟

– أعتقد إنك من النوع الثاني الي لازم يعلم حبيبته سمر بكل صغيرة وكبيرة في حياته.

قالتها وابتسمت تلك الابتسامة التي تردّ الروح، ولم أجدّ بدّاً من عدم التعقيب على كلامها الفاتن، إن ذكائها المحبّب إلى قلبي يجعلها تعرف جيداً متى تتكلم ومتى تصمت، متى تعبّر عن نفسها بجرأة ومتى تتراجع، متى تكون جادة ومتى تمزح، كل لحظةٍ أقضيها مع هذه الساحرة تجعلني استسلم لفتنتها أكثر، أتعلّق بثنايا تفاصيلها بشكلٍ أعمق، أعشق وجودها في حياتي على وجهٍ أصدق.

اقتربت جولتنا من نهايتها، بيد أن سمر لم تكن لتفوّت الفرصة السانحة في إبداء أفكارها الجنونية كالعادة، فهي كما أعرفها لا تقوى على مقاومة صنع الإثارة والاندماج في التجارب

الجديدة..

– ممكن أطلب منك طلب قبل ما ترجّعني للمول؟

– عيوني لك.

– من زمان وأنا ودّي أجرّب شعور السرعة العالية بالسيارة، وما أعتقد إن فيه أحد ممكن يخليني أخوض هالتجربة بنفسي غيرك.

– أبشري، أنا وسيارتي تحت أمرك.

– أنت تعرف قد أيش أنا أحب نوع سيارتك، فعلاً البي إم تطربني.

– تعرفين تسوقين زين ولاّ بتجيبين فينا العيد؟

– لا يهمك، أعجبك.

– يعني عندك رخصة؟

– لا، لكن سوّاقة حسب رأي أبوي.

– أخاف تتأخرين على البيت.

– لا عادي، أهم شي عندي إني أطلّعك من جوك الكئيب، والله لأهبّل فيك وأنا بنت أبوي.

– وأنا وش ذبحني فيك إلا هبالك المثير، بسميك من اليوم مهبولتي.

ضحكنا كثيراً ونحن نتجه إلى أحدى الطرقات السريعة التي أعرفها على الأطراف الشمالية من الرياض، والخالية غالباً من السيارات ومن أجهزة رصد السرعة.

أوقفت السيارة على الجانب الأيمن للطريق السريعة المظلمة والواسعة جداً بثلاث مسارات، تبادلنا الأدوار ونسيم الليل الربيعي البارد يلفحني ويؤنس روحي قبل أن أركب بجانب السائق، تموضعت سمر جيداً خلف مقود سيارتي البي إم دبليو 750 التي ورثتها عن والدي بعد أن قاعدها قبل عامين، ربطنا أحزمة الأمان بينما اختارت هي من ألبوم السيارة أغنيةً حديثةً تحبّها لراشد

الماجد، رفعت صوت السمّاعات حتى أقصى مستوى، ثم وبلا أي مقدمات عصرت محرك السيارة ليزمجر كالرعد وسط سكون الليل المخيّم على المنطقة، وانطلقت السيارة تتسارع بكامل جبروتها كالخيل العربي الأصيل وسمر تصرخ طرباً مع وصول السيارة إلى سرعتها القصوى المحدّدة إلكترونياً التي تبلغ 260 كلم/ساعة، وفي الحقيقة، فقد ساورني بعض التوتّر في اللحظات الأولى من هذه التجربة الجديدة عليّ، ولكن سرعان ما شاركت سمر ذلك المزاج المتفجّر والشعور الغامر بالإثارة المفرطة مع الإحساس بسريان هرمون الأدرينالين الذي حرّر جموع راقصي الزار القابعين داخل جسدينا..

بالفعل، لقد أسعدني كثيراً أنني حقّقت لها أمنيتها، ولكنها أسعدتني أكثر أثناء عودتنا إلى المول حين وعدتني بلقاءٍ أسطوريّ في الغد.

رجعت إلى المنزل وكأنني طارق القديم المحب للحياة، وكأنني قد نسيت كل ما مرّ بي مؤخراً من أهوال، وأثناء توجّهي إلى غرفتي لمحت حنان وهي تغادر غرفة خولة في طريقها إلى غرفتها، لم تكن على طبيعتها، فاستوقفتها وحييتها، وبدا أنها مستعجلة قليلاً ولا تريد الاسترسال في الحديث معي..

- هلا حنان، شفيك شكلك مب عاجبني؟
- هلا طارق، الحمد لله بخير، ما فيني شي.
- توقّعت ألقاك نايمة بدري كالعادة.
- إلاّ والله، هذا أنا رايحة أنام.
- غريبة، وش كنتي تسوين بغرفة خولة؟
- ولا شي، أنا يومياً أدخل أنظفها وأطلع.
- تنظفينها؟ ماني شايف معك أي أدوات تنظيف.
- أستأذنك، أنا مرهقة جداً وبروح أنام، تصبح على خير.

أغلقت عليها باب غرفتها وتركتني وحيداً في الممر دون أن تجاوب على سؤالي، لم يكن الوضع مطمئناً بالنسبة إليّ، ففتحت باب غرفة خولة وأضأت الأنوار وألقيت نظرةً مطوّلة، كان كل شيءٍ في الغرفة مرتّباً، ولكني لم أجد أثراً لأدوات النظافة التي توقّعت أن أجد بعضها وقد تركته حنان في الغرفة كونها تقوم بتنظيفها كل يوم كما زعمت، قد يبدو الأمر مربكاً بعض الشيء ولكنّني لم ألاحظ شيئاً واضحاً يدعو إلى الريبة على الرغم من غرابة الموقف..

وما الجديد؟

إننا نعيش جميعاً في هذا المنزل حالةً عامةً من الإرباك!

(9)

ارتمت حنان على سريرها كالجثة الهامدة بعد لقاء طارق العابر، وغطّت كالطفل الوليد في سباتٍ عميق، لم تعرني انتباهاً ولم تودّعني قبل أن تنام، بل تركتني هكذا وحيداً في ظلام غرفتها، وكأنها قد نسيت وجودي تماماً بعد ما حدث لها في غرفة خولة..

لقد وضعتني في امتحانٍ صعبٍ منذ أول يوم، وكدت أن أفشل لولا سرعة بديهتي التي أفتخر بها دوماً، يا له من امتحانٍ عسير!

لقد فاجأتني ونحن في غرفة خولة نتعاطى الحبّ في أعذب صوره بطلبٍ غريبٍ بلا أيّ مقدّمات..

– هوشيار، إذا كنت فعلاً تحبّني بطلبك ولا تردّني.

كانت تنظر إليّ بعيني الرجاء، تركت يديها اللتين كنت أضمهما بيديّ دون وعيٍ مني، ووجدتني أندفع مجيباً..

– لبيك يا مهجة فؤادي، سلي ما شئتِ.

– أبي أشوف أختي خولة لو دقيقة، اشتقت لها.

فاضت الدموع غزيرة كالينبوع من عينيها، وأخذت تنتحب عندما تذكّرتها فجأة، كان موقفاً عصيباً لا أُحسد عليه البتّة..

– كيف ذاك يا حبيبتي وخولة قد ماتت؟

– يقولون إنّكم تقدرون تجيبون الأرواح الميتة، أرجوك يا هوشيار، ودّي بس أشوفها لو مرة أخيرة.

كانت لا تزال تنتحب وهي ترمقني في ترقّب من ينتظر المعجزة، لقد أُسقط في يدي بالفعل، إذ أنني لا أستطيع خذلانها، وفي الوقت نفسه لا أستطيع إحضار خولة؛ فنحن لا نقدر على ذلك أبداً، وليس من الحكمة أيضاً في موقفي هذا أن أشرح لها ذلك.

جلت بنظري سريعاً في أرجاء الغرفة باحثاً عن حلّ لورطتي، ووقعت عيناي على صورةٍ مكبّرة لخولة تتّكئ على المنضدة المجاورة لسريرها، أمعنت النظر فيها ولمعت في رأسي فكرة ألمعيّة قد تنقذني..

– لبيك وسعديك، لحظات وتكون خولة بين يديك.

– صدق والله؟

– من أجل عينيك سأفعل المستحيل.

– يا عمري أنت يا هوشيار.

– ولكن يجب أن تساعديني.

– أكيد.

– يجب أن تحضّرين روحها بنفسك.

– أحضّر روحها؟

– أجل، لا تخافي سأعلّمك كيف تقومين بذلك.

– أعرف شوي عن تحضير الأرواح حسب قراءتي، لكن هل هو ضروري؟

– بالتأكيد، لأنني سأستعين بالجنّ الكاهن الذي أعرفه لإحضار روحها إلى هنا، ولن يتمّ ذلك إلاّ بتحضير أحد الإنس لروحها.

– أنا جاهزة.

– حسناً، سأحتاج منك أن تفعلي تماماً مثلما أفعل.

انصاعت لتوجيهاتي على الفور، وجلست في وسط الغرفة على الأرض، وأخذت أبتكر لها طريقةً زائفةً لتحضير الأرواح لا أعلم كيف خطرت على بالي، ثم قلت لها:

– إبدأي الآن بالتمتمات وسأختفي عنك لأتدبّر الأمر.

– أبشر.

– خلال دقائق ستظهر لك روح خولة للحظاتٍ فقط، ولكن أرجوك، إيّاكِ أن تتحدّثي إليها أو تحاولي لمسها.

– يعني أقدر أشوفها فقط؟

– تماماً، سترينها تقف أمامك للحظاتٍ ثم ستختفي.

– ما يخالف، شوفها يكفيني.

– سأعود إليك بعد اختفائها.

– أوكي.

اختفيت عنها، وتسلّلت بهدوءٍ إلى آخر الغرفة دون أن تشعر بي، لقد كانت خطّتي ببساطة أن أظهر لها بنفسي متمثّلاً على هيئة خولة للحظاتٍ لن تسمح لها أن تتأكّد من مطابقة ملامحها بدقّةٍ قد تكشف خطّتي، فأنا لا أستطيع مطابقة ملامحها وشكل جسدها كما كانت على طبيعتها، ولكنّي كنت أعوّل كثيراً على لهفتها وتأثّر نظرتها بمزاجها الراهن، إذ لم يكن لديّ خيارٌ آخر ألجأ إليه.

انتظرت عدة دقائق لأوهمها بصعوبة الخطوات التي يستلزمها تحضير الأرواح، وما إن تجلّيت لها على هيئة خولة تقف مسندةً ظهرها إلى الجدار حتى أُصيبت حنان بالذهول التامّ، فقد ظلّت تحدّق إلى وجهها في وجومٍ تام وقد جفّت دموعها وانحبست أنفاسها. كانت أقرب ما تكون إلى تمثالٍ من الحجر يجلس في وسط الغرفة، كنت أنا أيضاً أحاول بكل جهدي عدم الإتيان بأيّ حركةٍ أو

لفتةٍ تثير شكوكها، واصلت النظر طويلاً وهي مشدوهةٌ وكأن صاعقةً من السماء قد أصابتها، فقد كانت نظراتها نظرات الذي لا بمصدّقٍ ولا بمكذّبٍ ما يرى أمامه.

وفجأةً، أخلّت باتفاقنا وباغتتني حين نهضت من جلستها كالغزال وهي تنادي في أنين:

– خولة حياتي.

أقبلت تسعى صوبي فاتحةً ذراعيها وهي تنوي ضمّ هيئة خولة، ولكن سرعة بديهتي أنقذتني أيضاً، إذ اختفيت عن عينيها على الفور ثم تنحّيت جانباً قبل أن تدركني، ووقفت متحفّزاً أراقبها وظهري يركن إلى زاوية الغرفة البعيدة، توقّفت تماماً عندما بلغت موضع وقوفي السابق بعد أن تأكّدت أن خولة قد اختفت للأبد، وسرعان ما عادت أدراجها وجلست في وسط الغرفة مطأطأة الرأس والأسى يفيض من وجهها.

كان موقفاً غريباً عليّ، فأنا لا أستطيع إدراك كل مشاعر بني الإنس المعقدّة، إنّنا لا نشبههم كثيراً في هذا الجانب، قد نتفوّق عليهم في جوانب عدّة إلاّ أنّهم يتجاوزوننا كثيراً بتعقيد مشاعرهم وتضاربها.

لم تحرّك حنان ساكناً لمدّةٍ ليست بالقصيرة، وقد تعمّدت أن أعطيها فرصتها حتى تهدأ، جلست أمامها بعد أن عدت إلى هيئتي الإنسية التي تعرفها، أخذت برهةً من الزمن ثم رفعت إليّ بصرها..

– ما أدري كيف أشكرك، أنا الآن مدينة لك بعمري كلّه، عسى الله لا يحرمني منك.

– رحم الله خولة، وأنا دوماً رهن إشارتك يا حبيبتي.

– من هاللحظة يا هوشيار، أقسم لك ما تفرّق بينا قوة على وجه الأرض، أنت فعلاً حبيبي للأبد.

– هذا هو كل ما أتمناه.

حمداً لله، لقد نجحت بتفوّقٍ في أول وأقسى امتحان، وتأكّدت أنني قد فزت بقلبها.. للأبد.

***

غرام واضطرام

(10)

أقبل عبد الله، وكان مستاءً من لقائه بأمي هذا المساء في منزل خالي عمر، لقد روى لي كم كان استقبالها له وسؤالها عنا وعن المنزل باهتاً، وأن جلّ وقت اللقاء قد انقضى في حديثها عن أبي وغضبها منه وإلقاء اللوم عليه في تمزيق أوصال عائلتنا، وكما توقّعتُ تماماً، فقد أخبرته أمي عن رفضها القاطع لمقترحه بعودتها إلى منزلها وإلى أولادها في ظل غياب أبي، بعدما ساقت له الكثير من الأعذار الواهية كالعادة التي تحول بينها وبين عودتها..

– أسألك بالله يا عبد الله، وش كنت تتوقع منها غير كذا، فعلاً أستغرب منك إنك تنصدم من ردة فعلها، يعني أنت ما تعرف أمك وأنانيتها؟

– إلا والله أدري، لكن كان عشمي إنها على الأقل تقدّر وضعنا ولا تزيد الطين بلّة، لكن للأسف حطّمتني.

– أنا بلّغتك أنت وطارق عن رأيي في الموضوع من قبل، لأني كنت متأكدة من معرفتي بطريقة تفكيرها.

– كلامك صح يا حنان، لكن أنا قلت يمكن تحنّ لو شوي، وربّي إن خالي عمر كان ألطف منها، وحاول يساعدني في إقناعها، ووعدني بعد يزورنا خلال الأيام الجاية.

– الله يحيّيه خالي عمر.

– معليش نسيت أسألك.

– سم.

– لاحظت إنك أنتي وطارق ما رحتوا لجامعاتكم من وقت العزاء تقريباً؟ صحيح ولا ملاحظتي خطأ؟

– إلا والله صحيح، تعرف الوضع الماضي، لكن إن شاء الله نداوم قريب.

– إي والله تكفين وأنا أخوك، عاد أنا عارف حرصك وتعلّقك بدراستك، ما ودّي بصراحة ينزل مستواكم مهما كانت الظروف صعبة، لازم نثبت لأنفسنا وللكلّ إنا كبار وقدّ المسؤولية، ونعرف مصلحتنا زين، وإننا ما نحتاج لأحد أبد.

– أكيد طبعاً.

لم أكن أرغب بإزعاجه في هذا الظرف بالذات، ولذلك تجنّبت التطرّق إلى قراري الذي اتخذته بعد طول تفكير بعدم مواصلة الدراسة في نفس التخصص، ولعلّ الأحداث الأخيرة قد ساعدتني كثيراً في حسم الأمر والارتياح من دوّامة الأفكار والاختيارات، سوف أغيّر تخصصي ابتداءً من العام القادم بإذن الله، لقد كرهت هذا التخصّص فعلاً ولن أواصل فيه، وسأغيب عن باقي المحاضرات حتى نهاية العام الدراسي، إنه بلا شك أفضل قرار توصّلت إليه مؤخراً.

التفتّ إليه وقد خطرت لي فكرة قد توجّه دفّة الحديث بعيداً عن أمور الدراسة وقراري الجديد:

– أبكشف لك عن سر أتعبني والله من فترة طويلة يا عبد الله.

كان وجه عبد الله لحظتها يفيض بالحنان وهو ينظر إليّ، منتظراً أن أبوح له بسرّي الذي يؤرقني، ما أروع عبد الله وما أكبر قلبه، إننا نعتبره أبونا الثاني منذ صغرنا، هو دائماً من يهتم بتفاصيلنا ويتابع مشاكلنا عن كثب، لقد كان أبي يعتمد عليه كثيراً منذ كان مراهقاً في سدّ فراغ غيابه المتكرر لدواعي السفر من أجل العمل، إلى درجة أنه هو من يدبّر مصاريفنا المالية الخاصة واحتياجات المنزل، فهو المفوّض من قبل أبي بالحساب البنكي الخاص بنا، ولطالما كان أبي يداعبه أمامنا جميعاً ملقّباً إياه تارةً بـ (القوي الأمين)، وتارةً أخرى بـ (وليّ العهد)..

– أفا عليك وأنا أخوك، إرمي همّك عليّ يا حنان، عساني فدوة كل همومك بهالدنيا.

– الله لا يحرمنا منك يا أبونا الثاني.

كانت لحظةً فيّاضةً بالمشاعر وبامتياز، فبينما انسكبت الدموع من عينيّ كسحابةٍ وابلةٍ في مساءٍ ماطر، أطرق عبد الله برأسه وقد اغرورقت عيناه أيضاً بالدموع المستعصية، وطال بنا الموقف المُثقل بالمشاعر الدفينة، ربما لأكثر من دقيقتين كاملتين، أرخى علينا خلالها الصمت الحزين وشاحه دون استئذان، وتنهّدتُ أنا في لوعةٍ وقد اختلطت حروفي ببقايا دموعي السحّة..

– ودّي أصارحك، تدري إني ما صرت أحمل لأمي أي مشاعر، لا حب ولا كره، ولا أيّ شي أبداً يا عبد الله، وهذا الشي يعذّبني كثير، أنت متخيّل إنك توصل إلى درجة إنك ما تحب أمك!

– تبين الصدق، حتى أنا والله عندي نفس الشعور!

توقّفت قليلاً عند ردّه المفاجئ والغريب، كان يرمقني بلا ملامح، وفي الحقيقة لم استغرب كثيراً مشاعره تلك، فجميعنا وهو أوّلنا عاش وكبر في حضن هذه الأجواء، بيد أني صُعقتُ من جرأته بالتصريح عن مشاعره ودون تردّد، لأنني أعرفه جيداً، فهو من النوع الكتوم الذي لا يذيع سرّاً ولا يكشف عن شعور، لكن يبدو أن هذه الأزمة الكبرى التي تحيق بنا قد غيّرتنا جميعاً فعلاً، وبأسرع من توقّعاتي، وإذا كان هذا هو الحال، فإنني لن استهجن حدوث أي شيءٍ من أيّ أحدٍ في قادم الأيام.

وجدتُ نفسي أتابع مصارحاتي..

– عسى الله يغفر لي، بس سبحانه هو المطّلع على كل شي، ويعلم إني أحاول أجاهد نفسي عشان أتغلّب على هذا الشعور العميق، لكني عجزت وتعبت.

– وأنا بعترف لك إن صدمتي وخيبة رجاي في أبوي بالذات بعد الدراما الي صارت ما غيّرت الكثير في موازين المشاعر، يعني لا زلت على الأقل أحب أبوي مثل أول، ولو إني طبعاً زعلان منه حيل، أما أمي، مدري سبحان الله عجزت أغيّر مشاعري ناحيتها، مثلك تماماً.

– طيب، تواصلت مع أبوي؟ تطمّنت عليه؟

– إيه أكيد، هو كلّمني من المطار قبل ما يسافر، ورجع كلمني وسأل عنكم كلكم بعد ما وصل لإندونيسيا.

– إندونيسيا؟

– إيه، وبلّغني إنه يمكن يطوّل هناك هالمرة، حتى إنه رتّب معي كل مصاريفكم وأموركم المالية، مع إني حاولت أقنعه إنه ما يشيل همّ المصاريف لأن راتبي موجود، لكنه أصرّ.

– كنت أظنه سافر مصر مثل ما قال لي طارق.

ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه حاول إخفاءها وهو يردف شارحاً:

– لا، سافر لإندونيسيا، يقول عنده أمور كثيرة يحتاج يضبطها هناك وبعدها بيشوف، إنتي عارفة!

فهمت ما يعنيه بالطبع، ورقّت ابتسامة صغرى على ملامح وجهي، لا بد أنه يعني علاقته بسوهاتي التي أشكّ كثيراً أنها زوجته، وأن أمي كانت تعلم ذلك منذ زمن بعيد، ولكنها كانت تخفي علمها بالأمر درءاً لجرح كبريائها ولكي......

قطع عبد الله تيّار خواطري سائلاً:

– تدرين إنه خلاّني اسحب عشرين ألف ريال، وعطيتها أمي قدام خالي عمر حسب طلبه، ووصّاني أفهّمها إن هالمبلغ مب رضاوة لكن هدية منه لطليقته وأم عياله!

على الرغم من غرابة تصرف أبي هذا، إلاّ أنه لا يدهشني، فهو كما عرفناه حنوناً ولطيفاً ويتصرّف دوماً برقيٍّ وذوق، ولعلّ هذا هو ما يفسّر مشاعرنا التي لم تتأثّر كثيراً تجاهه، حتى بعد انكشاف أمره وعلاقته بسوهاتي، ولأكون أكثر صدقاً مع نفسي، فقد تضايقت من سوهاتي كثيراً بعد الصدمة الأولى، ولكني لا أنكر أني ما زلتُ أحبها كما أحب أبي، لاعتقادي أنهما لم يرتكبا جريمة لا تُغتفر، ببساطة لقد أحبّا بعضهما وتزوجا، كما أعتقد، وستكشف لنا الأيام كل التفاصيل المثيرة.

ودّعني عبد الله بعد أن قبّلني على جبيني، متمنياً لي نوماً هانئاً، وخطا إلى غرفة طارق المجاورة لغرفتي، ليتأكد من عودته إلى المنزل قبل أن يخلد إلى النوم.

أغلقتُ أنا باب غرفتي خلفه، ثم ارتميت على سريري وقلبي يرقص فرحاً كلاعبة باليه، قلبي الذي عاد يبتسم من جديد هذه الليلة بعد طول همٍّ وكرب، إني لأشعر به جيداً، بينما تلك التساؤلات اللذيذة تتراقص في رأسي، وأنا أعلم علم اليقين أني لا أستطيع الإجابة عليها، ولن يستطيع حتى مجتمعي بأكمله أن يفعل، لأن سطوته تعفيه من هكذا إجابات، ولكني سأتساءل على أية حال، لا من قبيل الرفاهية والتنظير، ولكن لأني أؤمن أن التساؤلات احتياج حقيقي..

من قال إن الحب حرام؟

ومن ادّعى أن البوح به خطيئة؟

ومن يزعم أن الزواج ممن نحب جريمة؟

من؟

(11)

لقد كانت ليلةً رائعةً بحقّ، تألّقت فيها مهجة قلبي سمر كما لم تفعل من قبل خلال لقاءاتنا الحميمية السابقة، إنه لقاؤنا الأروع على الإطلاق منذ عرفتها، وقد استطاعت من خلاله بكل فتنتها التي سحرتني بها وبكل حبها العظيم لي أن تنسيني فعلاً كل همومي التي رزحت على صدري مؤخراً.

لن أكون مبالغاً إذا قلت أنني قد شعرت ولوهلة أثناء اللقاء وكأننا قد أصبحنا بالفعل من كبار العشّاق الذين عرفهم العالم، والذين سطّر الروائيون والمؤرخون قصصهم وخلّدوا ذكراهم!

لقد كانت سمر بلا شك في قمة تجلّيها، فاحتوتني بحنانها، وداعبتني بدلالها.

رتّبت هي كل شيء كالعادة، واجتمعنا في إحدى الغرف الفخمة في نفس ذلك الفندق الراقي الذي تعوّدنا على اللقاء فيه من حينٍ إلى آخر كلما فاض بنا الشوق، كنّا معاً والهوى ثالثنا في ليلةٍ يصعب نسيانها، ليلةٍ مميّزةٍ امتدّت من بدايات المساء وحتى ما بعد منتصف الليل، ولم تكن تلك السويعات على روعتها لتُطفي غُلّتي، ولكنها مع لقاء البارحة كانت كافيةً لتعيدَ إليّ على الأقل توازني ومزاجي الذي ضاع مني.

كان جوّ الغرفة الباذخ يدعو إلى الرومانسية الحالمة بكل إغراء، ابتداءً من رائحة المعطّر الخاص الذي يملأ جوّ الغرفة عبقاً مريحاً، وورق الجدران الناعم المُنتقى بعناية، والستائر المستوحاة من عالم القصور الأوروبيّة والمنسدلة بأناقة بعرض أحد الجدران، ومروراً بالكنبات ذات المخمل الخمريّ اللون، وإضاءة الأباجورات الساحرة التي تتناغم مع مقاطع الموسيقى الهادئة المنبعثة من جهاز الاستريو الرقمي المثبّت بجوار شاشة التلفاز المسطّحة، وليس انتهاءً بالسرير

الاستثنائي الوثير وباقي قطع الأثاث السندياني الفاخر، كما كان أيضاً كل شيءٍ في تلك الغرفة المثيرة يتوسّل إليك لممارسة الحب بكل شبق.

تحدّثنا كثيراً، وتعانقنا أكثر، وما بين الحديث والعناق كانت حلوتي تجلس كالملاك الآسر في حضني، لنتهامس ونتجاذب، دون أن نشعر بالوقت، همهمات العشق وأسرار الغرام، وقبل هذا وبعد ذاك، لم ننسَ نصيبنا من أهازيج القبلات الدافئة حيناً والملتهبة أحياناً، لنجد أجسادنا المرتعشة نزوةً تذوب تلقائياً في بحرٍ من الرغبة اللامتناهية، وتغوص في إثارةٍ إلى أعماق اللذّة المسكوت عنها!

ما كان جديداً عليّ في هذا اللقاء بالذات هو إلحاح سمر المتغنّج على التماهي مع مُتعي الخاصة، إذ أصرّت ولأول مرة على أن تدخن معي من سجائري وذلك من أجلي أنا فقط، ربما لعلمها أن مشاركتها تفاصيلي يزيدني متعةً وسروراً، مع أنها لا تدخّن أصلاً!!

وفجأةً، وبلا استئذان، تداخل صوت طرق عبد الله على باب غرفتي في هذا الوقت المتأخر من الليل مع مسار ذكرياتي الطازجة، لم يكن وقته أبداً، فلم أكن أصلاً في مزاجٍ يسمح لي بالعودة إلى عالم الواقع بهذه السرعة، فقد كنت لا أزال منتشياً وأعيش في أجمل لحظات حياتي. فتحت له الباب على عجلٍ بيدي اليمنى وقد نسيت إطفاء سيجارتي المشتعلة التي كنت أحملها بين أصابع يدي اليسرى، وكما توقّعت تماماً حالما اكتشفت غلطتي تلك، فسرعان ما نشبت بيننا معركة كلامية مقتضبة حول ملاءمة التدخين داخل المنزل..

كان عبد الله يعلم بالطبع أنني أدخّن، ولكنني كنت دوماً أحرص على ألاّ يراني أحد، خاصةً أبي وعبد الله، وذلك من قبيل الاحترام الاجتماعي لشخصهما لا أكثر، ولكني لم أكن مقتنعاً بضرورة التصنّع الزائد سيّما وأن أبي أيضاً مدخّنٌ مزمن، وقد رأيت لحظتها أن الفرصة قد تكون سانحة للتعبير عن قناعاتي، وأن هذا لا يتعارض مع احترامي له كأخٍ أكبر، ولذلك فقد أكّدت له وبكل جرأةٍ على حقّي في التدخين وفي فعل ما يحلو لي داخل غرفتي الخاصّة. أعلم أنني كنت صادماً له بعض الشيء، ولكني أعرف عبد الله ورجاحة عقله جيداً، ولأننا بالطبع لم ولن نصل إلى أي تفاهمات بهذا الشأن، فقد غادرني ممتعضاً وأنا لا أزال واقفاً بباب غرفتي وهو يكيل لي بعضاً من شتائمه المحترمة التي تجعلني أبتسم دوماً للطافتها.

وخلال الأيام الثلاثة اللاحقة، لم أقابل عبد الله، فهو كالعادة مشغول بعمله وأصدقائه، وأنا أيضاً كنت مشغولاً بالسهر ليلياً وحتى الفجر مع شلّتي من الأصدقاء المقرّبين، بينما ينقضي جلّ نهاري في النوم من الصباح وحتى العصر، حتى حنان لم أرها أبداً خلال هذه الأيام، لأنها تقريباً لا تخرج من غرفتها أثناء تواجدي بالمنزل، ولذلك، وبعد أن أحضرت بعض الأغراض التموينية والمقاضي الغذائية ووضعتها في المطبخ، ذهبت إلى غرفتها للاطمئنان عليها وعلى صحتها، خوفاً من أن تكون مريضةً دون علمي، ولكنها اكتفت بالحديث إليّ وطمأنتي على وضعها من خلف الباب، ولعلّ حالها مؤخراً يثير في نفسي القلق لسببٍ أجهله، خاصةً بعد لقائي بها تلك الليلة وهي خارجةٌ من غرفة خولة.

عدتُ من السهرة الصاخبة في تلك الليلة مُتعباً ومتعكّراً إثر خلافٍ حادّ كاد يتطوّر إلى عراك بيني وبين أحد الأصدقاء، وهو ما اضطرني إلى مغادرة السهرة قبل انتهائها، ومرّ علي وقتٌ ليس بالقصير بينما كنت أتقلّب بجسدي المُنهك في ملل على سريري، وأقلّب في ضجرٍ مختلف التطبيقات والبرامج في هاتفي الجوّال، وذلك في انتظار النوم العصيّ، حتى باغتني صوت أذان الفجر القادم من المسجد المجاور وهو يتسلّل إلى غرفتي في روحانيةٍ وأناةٍ..

ولوهلة، خيّل إليّ أن ضحكات حنان الرنّانة تخترق الجدار الفاصل بين غرفتي نومنا المتجاورتين لتتهادى إلى مسامعي متجاوزةً صوت الأذان الخافت. أصختُ السمع لأتبيّن ما الذي يجري عندها، لقد كان بالفعل صوتها وهي تتحدّث إلى أحدهم، وإن كان الصوت غير واضح المعالم بالنسبة إليّ، وكأنه كان ممزوجاً بجلبةٍ تصدر عن حركاتٍ ما تأتيني تباعاً من داخل غرفتها، يا للغرابة، ما هذا بالضبط؟

حنان تنام عادةً في وقتٍ باكر وتستيقظ أيضاً في وقتٍ باكر، وربما لم تسهر طوال حياتها إلى وقت الفجر، كما أنها لا تتحدّث مع أحدٍ عبر هاتفها الجوال بهذا الصخب، ولذلك غادرت غرفتي في حذرٍ لأستطلع الأمر، وكان الممرّ الذي يربط بين غرفتينا يغطّ في الظلام، بينما نور غرفتها المضاء يتسرّب على استحياءٍ من تحت الباب الموصد..

وما أن دنوت منه، حتى انفتح بسرعةٍ جعلتني أرتبك وأختبئ في لمح البصر، ملصقاً ظهري بالجدار المجاور للباب، ولقد اكتملت دهشتي مع خروج حنان من غرفتها، متجهةً إلى الدور الأرضي دون أن تلاحظ وجودي خلفها، تبعتها دون أن تشعر بي في خطواتٍ متأنيةٍ وهي في

طريقها إلى المطبخ حتى دلفت إليه، يا إلهي، لقد كانت في وضعٍ غير طبيعي وغير معتادٍ أبداً، وكأنها حنان أخرى لا أعرفها، وكأنها أقرب إلى إنسانٍ مسحور يعيش في عالمه الخاص!!

لقد كانت المرة الأولى التي أراها فيها تخرج من غرفتها غير محتشمةٍ وغير مباليةٍ، وبهذه الطريقة المخالفة لأبسط أعراف منزلنا، حيث أنها كانت ترتدي بيجامة النوم الخفيفة والقصيرة جداً التي تكشف عن خبايا جسدها، والأغرب والأدهى أنها كانت أثناء طريقها تتبادل أطراف الحديث مع شخصٍ آخر بجانبها، غير موجودٍ أصلاً!!

«أعوذُ بكلمات الله التامّات من شرّ ما خلق»..

وجدت نفسي أتمتم في سرّي مردّداً هذا الدعاء وأنا أراقبها خلسةً من خارج المطبخ وهي تُعدّ لنفسها كوباً من القهوة الأمريكية، ثم تدعو ذلك الشخص الخفيّ الذي يبدو أنه يقف إلى جوارها لإعداد كوب قهوةٍ له، ولكنه يرفض الدعوة!!

لقد انجلى الأمر ولا مجال عندي الآن للشكّ، إن حنان المسكينة ليست مسحورة كما ظننت لأول وهلة، بل هي ممسوسة بالجنّ بالتأكيد، وهذا ما يفسّر لي عزلتها وغرابة تصرّفاتها مؤخراً، لا بد أن هذا الجنّي اللعين يستحوذ عليها الآن بشكلٍ كامل ويتحكّم بها وبتصرّفاتها، رحماك يا ربي، ماذا دهى أختي الحبيبة حنان؟

كانت لا تزال تتحدّث إليه بتودّد وتمازحه أمام ناظريّ..

وفجأةً، وضعتْ كوب قهوتها جانباً، ثم احتضنت الهواء في لقطةٍ عاطفيةٍ مذهلة لم أرها في أيّ فيلمٍ سينمائي من قبل..

يا إلهي، إنها تحضن ذلك الجني وكأنه رجلٌ حقيقي، بل أكثر من ذلك بكثير، لقد أغمضت عينيها كعاشقةٍ حقيقية، ثم تثنّت بجسدها و..

وبدأت في تقبيله!!

كانت قبلةً مستعرةً على ما يبدو، شعرت لحظتها أن ذلك اللعين ربما يراقبني الآن تماماً كما أراقبهم.

لم أتمالك نفسي والرعب الذي قضى على دهشتي يزلزل كياني، فهرعت صاعداً إلى غرفتي هرباً من هول ما رأيت، وأقفلت الباب بالمفتاح بيديّ المرتعشتين، ودسست جسمي المُنهار ذعراً تحت غطاء سريري وأنا لا أعلم ما يجب عليّ فعله، وكيف أتصرّف بحكمة في هذه اللحظة التي تحبس الأنفاس؟

لا أستطيع التفكير بمنطقية وكأن ذهني مشلول، هل أعودُ إليهم وأواجه حنان وأحاول إنقاذها بأيّ وسيلة من ذلك الجني الخبيث؟ وكيف سأنجح في ذلك؟ ولكن ماذا لو لم تستجب حنان لمحاولتي أو قاومتني؟ ماذا لو تمكّن هو من إيذائي أو تلبّسي؟

هل يجدر بي إذاً الاستعانة بعبد الله، لإنقاذها من استحواذ هذا اللعين عليها وعلى حياتها؟

ولكني لا أضمن ردة فعل عبد الله في مثل هذا الموقف، لا أضمن عنفه معها، ولربما خرجت الأمور تماماً عن السيطرة.

وما هي إلا لحظة، حتى كاد قلبي يتوقّف من الخوف..

أجل، لقد كان باب غرفتي يُطرق في بطء!!

(12)

يا لها من ثلاثة أيامٍ تعدل العمر؟

كان منتهى آمالي منذ قابلتها أن أصرّح لها بحبي العظيم وأن تتقبله دون نفورٍ مني على الأقل، ولكن عشقي الأبدي حنان لا تكتفي بالقليل، لقد أذهلتني، لم أتوقع أن تتطوّر الأمور بيننا بكل هذه السرعة وبكل هذا القدر من الجنون، خاصةً بعد أن اجتزت امتحان حبّها الأصعب، لقد نما حبنا خلال هذه الأيام القلائل وأزهر وتحوّل إلى حديقةٍ غنّاء وكأننا نعيش قصة حبٍّ كبيرٍ منذ أعوام!

منذ أول مصارحاتي لها واعترافها الصادم بحبها لي بالمقابل ونحن نعيش في عالمٍ آخر من الخيال، إن حبّاً وُلدَ من رحم الرؤيا لا بدّ أن يكون استثنائياً.

لم نفارق بعضنا ولا لحظةً واحدةً، سواءً أثناء تحوّلي إلى هيئتي الإنسية التي تحبها حنان أو من خلال أحاديثنا المتّصلة صباحَ مساءَ حينما أختفي عنها أثناء عودتي إلى هيئتي المستترة الأصليّة، حتى أنه لا يحلو لها ضمّي وتقبيلي ومباشرتي إلا عندما أكونُ مستتراً، لأن لمس جسدي المختفي وتحسّسه بشفتيها وجلدها وسائر أعضائها يثير شبقها أكثر، ويطلق لخيالاتها العنان كما ذكرت لي.

لقد تماهيت مع كل تفاصيلها وتفاصيل يومها إلى درجة أنني عشقتُ غرفتها وكل شيءٍ فيها، وكأنها غرفتي أنا التي لا أعرف غيرها في هذا العالم. كانت تستأذن مني في خفرٍ وتغادرني للحظاتٍ فقط وذلك لتأكل ما يسدّ جوعها من المطبخ، ثم تعود إليّ والشوق يغمرها، ولم تنسني بالطبع من غذائي المفضّل بعد أن ألحّت عليّ، فقد حضّرت من أجلي طبقاً كبيراً من أجود قطع العظام الطازجة التي لم أذق مثلها طوال حياتي.

لله درّها من ذكريات، ولكن، ولا بدّ دوماً من كلمة لكن، كل تلك اللحظات التي لا تُنسى من الحياة المثالية لعاشقين مثلنا تبخّرت في لحظةٍ للأسف، لقد اكتشف طارق أخو حنان أمرنا فجر هذا اليوم، أثناء وجودنا في المطبخ، ثم صعد سريعاً إلى غرفته، ولحقنا به، ولكنه لم يردّ على حنان أبداً، ولم يفتح لها باب غرفته.

كانت تريد أن تتأكّد من نواياه تجاهها، وماذا سيفعل بها بعد أن رآها معي، فلقد أرعبها بالفعل انفضاح سرّنا، وخافت على نفسها من أن يلحقها أيّ أذىً من طارق أو ربما من عبد الله، وبمجرّد عودتنا إلى غرفتها، فاجأتني بقرارٍ غريب لم يخطر على بالي ولم أستعدّ له أبداً، لقد أصابتني بالذهول مجّدداً كما فعلت بي في أول لقاء، حيث دنت مني فجأةً والخوف يعتريها، بعد أن أغلقت باب غرفتها علينا، وهمست:

– لازم نهرب فوراً يا حبيبي!

– نهرب؟

– بهرب معك إلى ديرتكم قبل ما يؤذوني أخواني، أكيد ما راح يسكتون بعد ما شافنا طارق، واحتمال يعلّم أخوي عبد الله، وهنا الطامّة الكبرى، أنا والله خايفة منهم عليّ وعليك.

– أيُعقل هذا؟

– مدري، بس كل شي جايز في هذي الحالات يا هوشيار.

– ولكنّي أعتقد أن طارق قد رآكِ ولكنه حتماً لم يتمكّن من رؤيتي.

– أكيد، ما قدر يشوفك لحظتها، لكنّي سمعته قبل ما يهرب وهو يردّد المعوذات، وهذا يعني إنه درى إني كنت في المطبخ مع جنّي، وأكيد إنه شافني وأنا قاعدة أبوس هالجنّي بعد.

– وما الذي تبادر إلى ذهنه في ظنّك عندما رآكِ وحيدةً في ذلك الموقف؟

– أكيد إنّه بيحسّبني ممسوسة ومتلبّسني جنّي!

– صدقتِ.

– هالحالة مشهورة عندنا، ويسمّونها (الجن العاشق).

– إذن، تفضّلين أن نهرب؟

– ضروري نهرب الآن لديرتكم قبل ما يمسكونا.

– تقصدين إلى دياري؟

– إيه.

– أنا رهن إشارتك دوما يا حبيبتي كما تعلمين، ولكن.....

كنت أنوي أن أشرح لها عدم قدرتنا على الهروب إلى قريتي آدوم وذلك بسبب خلافي الكبير معهم والنذر الذي قطعته على نفسي، غير أنها قاطعتني وحسمت الأمر..

– لا لكن ولا شي، الوضع خطير جداً ولا يحتمل أي تأخير.

لم تنتظر تعليقي، بل ارتدت في لحظةٍ جلبابها الأسود ونقابها، وخرجنا من غرفتها على عجل، دون حتى أن تصطحب معها ملابسَ إضافيةً أو زاداً، ثم عرّجت بنا إلى الصالة حيث التقطت من الخزانة مفاتيح مركبة أبيها التي تسمّيها (الصالون).

كان الصباح يتنفّس زفراته الأولى بينما كانت حنان تنطلق بنا بمركبة أبيها الكبيرة وأنا أجلس بجوارها في هيئتي المستترة في طريقنا إلى خارج حاضرة الرياض، وذلك بعد أن سألتني بدقّة عن مكان ديارنا، وكم تبعد عن الرياض، فدللتها والمفاجأة المذهلة لا تزال تستوطن كياني، لقد كانت أول مرة أركب فيها مركبات الإنس، وفي الحقيقة أنها صناعة مذهلة، إذ تتفوّق في إمكانياتها وقوّتها وسرعتها على أعظم دابةٍ مجنّحةٍ عرفها الجنّ عبر تاريخهم.

أخذتْ حنان تجتاز بنا في مهارةٍ أثارت إعجابي، عدداً من دروب الرياض التي كانت خالية في هذا الوقت الباكر من صباح يوم الجمعة، وهو أمرٌ طبيعي الحدوث لديهم خلال عطلة نهاية الأسبوع، وذلك كما أخبرتني حنان، حمداً لله، فقد تلاشى توتّرها وعلت ابتسامتها المتواضعة من جديد عينيها الجميلتين من خلف النقاب الأسود..

– ربّ ضارةٍ نافعة، تدري إني من أمس وأنا مدري شلون أفاتحك بموضوع هروبنا وانتقالنا لديرتكم عشان نعيش هناك، بعيد عن جوّ الكآبة الي ساكن ببيتنا.

– كل ما أخشاه يا قرة عيني هو فقط عدم مناسبة ديارنا لكِ!

– أنا ما يهمّني وين أعيش، ولا أخاف من أيّ شي دامني معك يا بعد هالدنيا كلها، لأنّي أعتبرك وطني.

بلغنا النقطة الأمنية خارج الرياض، واستوقفنا رجال الأمن بعضاً من الوقت للتحقّق من وضع حنان، ربما لأنها أثارت ارتيابهم كشابةٍ تقود مركبة أبيها على طريق سفر في مثل هذا الوقت الباكر من العطلة الأسبوعية، ولكنّها بذكائها بدّدت كل شكوكهم، وسمحوا لنا بالعبور متعاطفين مع ظروفها القاهرة، وذلك بعد تلفيقها قصةً محبوكةً عن والدها المريض والمسافر للعلاج خارج الوطن، وعن كونها الوحيدة من أولاده التي تقوم على رعاية أمها وأخواتها الذين ينتقلون باستمرار بين الرياض والمزاحمية، حيث أن إخوانها من الذكور لا يُعتمد عليهم ما بين عاقٍّ لوالديه ومدمنٍ للمخدرات!!

واصلنا المسير بعدها ما يربو على الساعتين المتواصلة، لم ننفكّ خلالها نتحدّث عن قريتي آدوم وحياتي فيها، وقد رويت لها هذه المرّة قصتي مع عوكام منذ بدايتها، وما حدث لي حين تركت آدوم.

غادرنا الطريق المعبّدة لنتجه عبر الصحراء صوب وجهتنا، وبعد قرابة العشر دقائق تعطّلت بنا مركبتنا إثر غوص عجلاتها الأربع في الرمال العميقة، ولكن ولحسن حظنا، فقد كنا على بُعد مسافةٍ قصيرة جداً من آدوم، اقتنعت حنان بالمكوث في المركبة ريثما أتفاهم مع أهل قريتي وأميرهم عوكام على كل شيء، فإما أن يقبلوا بشروطي كاملةً، وإلا غادرنا مضطرّين إلى وجهةٍ أخرى، ووافقت حنان فوراً على كل ما ذكرت، ولكنها رجتني أن أُلين جانبي معهم ما استطعت، وذلك لرغبتها الجامحة في العيش ها هنا في آدوم دون سواها.

مضيت في طريقي نحوهم وأنا عازم على تحقيق رغبة مهجة قلبي حنان مهما كلّفني ذلك من تنازلات، ولكن لا مانع قبل ذلك من خوض بعض الجولات الخاطفة من المفاوضات التي قد تُؤتي أُكلها، وما أن ولجت أطراف آدوم الحبيبة إلى قلبي حتى فاض بي الحنين الجارف لكل مراتع

الطفولة والصبا والشباب، وقابلت بعض المعارف هنا وهناك، وسلّم عليّ بحرارة كل من صادفته لكوني شخصيةً مشهورةً لا يجهلها أحد، كانوا وكأنهم غير مصدّقين عودتي المفاجئة إلى أحضان قريتي، ولذلك فقد انتشر الخبر انتشار النار في الهشيم.

قصدت الإيوان مباشرةً، حيث يقيم عوكام، وما أن وصلت إلى هناك حتى فاجأني ما وجدت عند الساحة الخارجية الواسعة أمام الإيوان، فلقد وجدت المكان وقد غصّ عن بكرة أبيه بكل وجهاء آدوم ورجالاتها الذين كان يتوسّطهم عوكام بنفسه!

كان منظراً مهيباً بحقّ، وقفت أمام الحشد لوهلة وأنا أفكر كيف سأبدأهم، ولكن صديقي العزيز سيبان باغتني قادماً من يميني، وعانقني على حين غرّةٍ مني، مرحّباً بقدومي أحرّ ترحيب، وتبادلنا على عجل الاطمئنان على بعضنا ثم عاد ليعانقني بقوةٍ بينما هو يهمس في أذني:

– بشراك يا صديقي، لقد وافق عوكام على كل شروطك، وقد خرج بنفسه للترحيب بك ومبايعتك أميراً حال سماعه بخبر عودتك، وستقام أكبر الاحتفالات والولائم بهذه المناسبة حسب الاتفاق بينه وبين وجهاء آدوم.

طغى الحبور على كل ملامحي وملأ الفخر جوارحي جرّاء سماعي هذا الخبر المفرح، أخذت نفساً عميقاً بعد أن تبادلت مع سيبان نظرات الامتنان العميق، ثم توجّهت بكلامي نحو عوكام:

– تحية طيبةً لكم جميعاً.

– مرحباً بك يا هوشيار، مرحباً بك يا أميرنا الجديد!!

نطق بها عوكام مباشرةً دون تأخير، وإن كانت نبرة صوته المجلجل وتقاسيم محيّاه لا تدلّ أبداً على رضاه عن التنازل وتتويجي أميراً لآدوم، لا بدّ أن وجهاء آدوم وكبارها قد أرغموه على التنازل بالأمارة لي. إنّي أعرفه جيداً، لم يكن ليرضى بذلك من تلقاء نفسه، لقد فعلوها كما توقّعت تماماً، وإن يكن، فهذا لا يهمّ أبداً، الأهمّ في هذه اللحظة أنها ظهيرةٌ مباركةٌ، أنه موقفٌ عظيم يختزل عمري كله، لقد حصلت أخيراً على كل ما تمنّيته في هذه الحياة..

قلب حبيبتي، وأمارة آدوم..

– شكراً لكرمك يا عوكام، وبهذه المناسبة السعيدة، فإني أستميحكم عذراً في تقديم ضيف عزيز سيحلّ على قريتنا آدوم.

– ضيفك ضيفنا جميعاً يا أميرنا.

ردّدها الجميع بصوتٍ مدوٍّ كما جرت العادات هنا..

– إنها زوجتي الإنسيّة حنان.

كان لا بدّ أن أكذب بأن حنان هي زوجتي، لأنهم لن يسمحوا لي أبداً أن أحضر معي غير زوجتي وإن كنت أميرهم، فالتقاليد الاجتماعية هي أعظم القوانين على الإطلاق، ويكفيني حالياً أن يتقبّلوها بينهم على الأقلّ كإنسيّة، لأني كنت أعلم أن هذا سيكون صادماً لهم، ولكني لا أكترث لصدمتهم، فأنا الآن الأمير المُطاع ولن يجرؤ أحدهم على الاعتراض، كما أنهم سيعتادون مع الوقت على هذا الأمر.

أشار عوكام إليهم جميعاً إشارةً خاصّة ذات مغزى، ثم خاطبني في لهجةٍ رقيقةٍ:

– لا بأس يا أميرنا، بانتظار عودتك مع أميرتنا الإنسيّة لنباشر مراسم نقل الأمارة.

ما أخبث هذا الكهل الذي رضع السياسة منذ شبابه؟

إنه يحاول مراوغتي من الآن في محاولةٍ لكسب رضاي بعد أن فقد كل شيء، إنه بلا شك يخشى من انتقامي منه لاحقاً..

– ولكني سأحتاج إلى كرمك المعهود هذه المرة يا عوكام.

– بالطبع، طلباتك أوامر.

– آمل أن تطلب من جميع سكّان آدوم أن يتمثّلوا في هيئتهم الإنسية عند خروجهم من منازلهم وأثناء تجوالهم، وذلك كعلامة ترحيب بضيفتنا العزيزة.

– بكل تأكيد، هذا من حقوقها علينا جميعاً.

– لا أريد لأحدٍ أن يخيف أميرتنا الجديدة أو يمسسها بأدنى أذىً، ولو من غير قصد.

كنت أرمقه بنظرةٍ ثاقبه يفهم معناها جيداً، وقد كان طلبي السابق هو أول أمرٍ أصدره في العهد الجديد، تركتهم يتهامسون فيما بينهم، بينما مضيت أنا في طريقي نحو حنان، وتعمّدت المشي بخطواتٍ قوية وواسعةٍ يملؤها الزهو، في حركةٍ استعراضيّة تبرز قوّتي وشبابي كأميرٍ واعد.

كانت نسائم السعادة تدفعني بلطفٍ صوب حنان التي كانت لا تزال حيث تركتها في المركبة، بلغتها في لحظاتٍ، فوجدتها تنتظرني على أحرّ من الجمر لأبشّرها بالأخبار الطيّبة، قفزتْ من المركبة حين ناديت عليها باسمها وهي تنتظر صوبي في ترقّب وأمارات السعد تغرقني..

– بشّرني، اتفقتوا؟

– أبشري بما يسرّك يا ثمرة فؤادي.

– فديت روحك، إحكي إحكي.

– لم يوافقوا على كل شروطي فحسب، بل.....

صمتّ لوهلة وأنا أتأمّلها في وله، فصاحت بي:

– حبيبي هوشياااار، يلاااا علّمني.

– بل إن عوكام وكل وجهاء آدوم يقفون في انتظارنا الآن لإتمام مراسم نقل الأمارة من عوكام إليّ!

لم أكد أُنهي جملتي حتى احتضنتني، ثم تعلّقتْ بعنقي وهي تهنّئني في حبٍ بالغ..

– ألف ألف مبروك يا أميري الحبيب، تستاهل الأمارة وكل شي جميل في هذي الدنيا يا بعد روحي.

– لكنّي اضطررت للكذب عليهم كذبةً حميدة تتعلّق بك.

– ولا يهمّك يا حبيبي.

– كان لا بدّ أن أزعم أنك زوجتي الإنسية، فهنا لا تساهل مطلقاً في علاقة ذكرٍ وأنثى خارج إطار الزواج.

– فهمت، لا تشيل همّ يا نور حياتي.

كانت كلماتها تلك بالذات، أعني كلمات غزلها الجديدة على ثقافتي تذوّبني تماماً، وتنقلني إلى عوالم أخرى في غمضة عين، ولكم كانت فرحتها بتحقيق مرادي لا تُقدّر أبداً، حتى أنها ربما قد تجاوزت فرحتي.

كم أعشق هذه الإنسيّة التي سحرت فؤادي في ليلةٍ وضحاها، وجعلت مني في أيامٍ معدودات مخلوقاً أرقى وأقوى، إنها بلا شك معجزة الحب التي غيّرت عشّاق الثقلين ولا شيء سواها!!

عوالمُ مُستترِةِ

(13)

هل من الممكن أن تنتهي بي الأمور وتستقرّ بي الحياة هنا، في هذا المكان الغريب والمدهش؟

هل قُدّر لي وأنا الإنسية أن أصبح فعلاً أميرةً للجن، هكذا دون أي مجهودٍ أو ترتيباتٍ مدروسة أو تخطيط؟

كيف نجحتُ في قيادة سيارة أبي ولأول مرة بكل هذه المهارة داخل وخارج مدينة الرياض، وبلا أي أخطاء؟

هل، وكيف، وماذا، و و و..

إن كل ما حدث لي خلال الأيام الماضية، وربما ما سيحدث في قادم الأيام، أقرب إلى التوهّمات والعالم المسحور لشدّة غرابته، ولكنه في الواقع هو الحقيقة التي أعيشها لحظةً بلحظة، ولو أقسم لي ملكٌ مُنزلٌ من السماء قبل أسبوعٍ فقط أنه قد اطّلع على الغيب بطريقةٍ ما، وأن كل هذا سيحصل لي لما صدّقته!

كان رأسي يمتلئ بهذا النوع من الحوارات العجيبة وأنا أخطو بكل ثقةٍ إلى جانب حبيبي الأمير المتوّج هوشيار، بعد أن تخلّصت من عباءتي ونقابي في السيارة، بينما تمثّل هو في هيئته المرئية، كنت أشبك ذراعي في ذراعه القوي بكل اعتداد ونحن ندخل إلى عوالم قرية آدوم.

إنّ أول ما لفت انتباهي في آدوم هو حجمها وكثافة سكّانها، إنها تعتبر مدينة أكثر من كونها قرية، ولا أعلم لماذا يصرّ الجن كما علمت على إطلاق اسم القرية على المدينة، ربما لأنهم لا

يعترفون بكلمة مدينة أصلاً في قواميسهم، ربّاه، ما أقدم هذا المكان الغريب الذي ربما تجاوز في عمره ألفي عامٍ على الأقل.

لقد لفت انتباهي أيضاً أن أهل آدوم يسكنون كعوائل متكدّسةٍ ومتشاركة في هذه البيوت المبنيّة من الحجارة لا من الطين، وهذا ما يؤكد قدم المكان المهجور من الإنس منذ زمنٍ طويل جداً، ولقد روى لي هوشيار أن آدوم كانت في الأصل قريةً عامرة بالإنس في غابر الأزمان، ولكن أصحابها قد هلكوا أو هجروها لسببٍ ما، فتحوّلت إلى خرابةٍ سكنها الجن، ثم وسّعوها لاحقاً حتى أصبحت على هذه الهيئة التي أراها اليوم.

إن أهل آدوم كما يبدو يعتنون ببيوتهم قليلاً من ناحية النظافة والترتيب وحرصهم على إضافة بعض ملامح الزينة الظاهرة على الجدران الخارجية، وتتضح بساطتهم في ذلك، حيث أن تلك الزينة من المواد الطبيعية المتوفّرة في بيئتهم.

كنا نعبر أنا وهوشيار كأميرٍ وأميرةٍ من طريقٍ إلى أخرى ومن ممرٍّ إلى زقاقٍ نحو الإيوان كما يحلو لهم تسميته هنا مثلما أخبرني هوشيار، والإيوان هو الديوان الذي يقيم فيه عادة أمير آدوم، ويباشر منه أمور الحكم، ولقد قابلنا في طريقنا حتى الآن العديد من سكّان آدوم الذين كانوا كلهم مرئيين بالنسبة إليّ وهو ما أثار فضولي قليلاً، يا للغرابة، إنهم جميعاً على خلاف ما تصوّرت يشبهوننا في كل شيء تقريباً.. في سحنتهم، وفي هيئتهم، وفي ملابسهم، وإن كنت أعتبر ملابسهم التي تشي بذائقتهم غريبة الطرازات وذات ألوانٍ غامقة لأنها قديمة الصنع على ما يبدو، غير أنها ليست بالية، بل هي مرتّبةٌ ونظيفة، وربما كان الشيء الوحيد الذي يختلفون عنّا فيه بشكلٍ واضح أمكنني تمييزه هو لغتهم، فلغتهم العربية الفصيحة وهم يتحدثون مع هوشيار أثناء استيقافنا عدة مرات للسلام عليه عتيقةٌ جداً، وأظنّها كما لاحظت نفس لغة أهل نجد الفصيحة التي تعود بأصولها إلى العصور الجاهلية لجزيرة العرب، وبما أنهم لم يطوّروها كثيراً منذ ذلك الزمان، فقد احتفظت بذات المفردات والتعابير. وللإنصاف، فقد أحببتها ابتداءً من فم حبيبي هوشيار، ولذلك فقد أجتهدُ قليلاً لإتقانها، ولا أعتقد أن ذلك سيمثّل لي أيّ صعوبة تُذكر، لكوني قارئةً نهمة لمختلف أنواع الأدب الفصيح نثراً وشعراً.

التفتّ إلى هوشيار بجواري وقلتُ له وأنا أحاول أن أتماهى مع لغتهم..

– هوشيار، هل تعتنون بالشعر مثلنا نحن العرب؟

– لا، إننا معشر الجنّ لا نجيد الشعر إطلاقاً.

– هذا أمر غريب، خاصةً أنتم يا شعب سلطنة نوجد.

– تعنين سلطنتنا ناجود بالتأكيد؟

– أجل، عفواً أقصد سلطنة ناجود.

– ولماذا نحن بالذات؟

– لأنكم تستقرّون بيننا هنا في نجد منذ القدم، والشعر العربي كما تعلم وُلد وترعرع هنا في نجد، قبل أن يصل إلى كل مكانٍ في العالم.

– تساؤلك مثير فعلاً، فعظماء الشعر العربي الأوائل كانوا من هذا الإقليم تحديداً، وحتى الشعراء العذريّون كما تدعونهم كانوا أيضاً أبناء نجد الولاّدة لأعظم الشعراء على مرّ التاريخ، ولكن جوابي على تساؤلك أنني لا أعلم، ولم يسبق لي التفكير في هذا الأمر المُلفت للنظر، وإن كنّا نعشق الشعر العربيّ ونحفظه ولعلّنا نردّده أكثر منكم.

ابتسم في إعجاب وهو يهزّ كتفي بكتفه..

– إنك تحكين بلغتنا بطلاقة!

– طبعاً، ولي الفخر في ذلك، ولا تنسى أنها لغتنا الأصليّة التي أجيدها.

– رائع، كم تصرّين على إدهاشي في كل دقيقةٍ أقضيها معك.

– حسناً، وماذا عن أصناف الأدب الأخرى من النثر؟

– للأسف يا حبيبتي، نحن لا ننتج أي نوعٍ من الأدب مثلكم، وقد أفترض أننا معشر الجن لم نوهب ملكة الأدب قط.

– أمر عجيب بالفعل.

– وأين العجب؟

– كان العرب قديماً يعتقدون أن كل شاعرٍ لا بدّ أن يبيت بوادٍ للجن اسمه (وادي عبقر)، وذلك ليهبوه ملكة الشعر، ولكن يبدو أن كل هذا هو مجرد خزعبلات لا أكثر.

ضحك هوشيار طويلاً من جملتي الأخيرة وبصوتٍ مرتفع، قبل أن يقترب من أذني ويهمس:

– هل تذكرين نقاشاتنا الموسّعة خلال الأيام الماضية عن اختلاقكم الكثير من الافتراءات عنّا وعن عالمنا؟

بادلته الضحك، لأنني تذكّرت كمية الكذب والمزاعم السخيفة التي نتفنّن منذ القدم في تلفيقها عن الجن وعن حياتهم واتصالهم بالإنس، ودار بخلدي العشرات من القصص المكذوبة والادّعاءات المُفتراة عن عوالمهم المستترة وكينونتهم الخفيّة، سواءً ما يتداوله الناس في حكاياتهم الشعبية من قدرات الجنّ المذهلة وتلبّسهم للإنس عن طريق الدخول فيهم والاستحواذ عليهم وعلى تصرّفاتهم، أو ما امتلأت به الكتب التراثية العربية من تصنيفٍ للجنّ وأحوالهم والإسهاب في وصفهم بطريقةٍ لا تمتّ لحقيقتهم بصلةٍ.

لطالما أشغلني هذا الموضوع تحديداً منذ أعوام، وهو ما دفعني إلى البحث طويلاً وقراءة كل شيءٍ وقعت عليه يداي عن عالم الجنّ وكيفية تناول أغلب ثقافات الأرض لهم، خصوصاً ثقافتنا العربية والمحلية، وللمصداقية مع نفسي، لم يقنعني حرفٌ واحدٌ مما قرأت، حتى انكشف لي الأمر برمّته جليّاً وذلك عقب لقائي بهوشيار، لأنني عرفت منه كل شيءٍ كان يثير حيرتي عنهم وعن علاقتهم وصلتهم بنا نحن معشر الإنس، ويمكنني الآن وبعد ما رأيته بأم عينيّ الجزم بصحة ذلك.

لقد تكوّنت لديّ مؤخراً صورةٌ واضحة لا تعلوها ذرة غبارٍ من الشك عن تشابههم معنا في عناصر كثيرة من الناحية الفكرية والاجتماعية والمزاجية وغيرها، وإن كانوا يُعدّون بدائيين مقارنة بالإنس في الأخذ بأسباب الحضارة والتمدّن، وبسبب هذا التشابه الكبير بيننا في الوعي والإدراك والمسؤولية فهم مكلّفون شرعاً مثلنا بالضبط، كما أنني أصبحت على يقينٍ تامّ بأنهم لا يتمتعون بأي قدرات خارقةٍ تختلف عنّا كما جرى تصويرهم، إلا في ما يتعلّق بتركيبتهم الحيوية، وذلك قد يفسّره أصل منشأهم النّاري، كطول أعمارهم وطبيعة غذائهم بالإضافة إلى قدرتهم على رؤيتنا وعدم مقدرتنا على رؤيتهم في حالتهم الطبيعية إلا إذا تشكّلوا لنا في هيئتهم الإنسية، وأرجّح أنّه كان لديهم

شيء من هذه القدرات الخارقة التي ليس بوسعي الجزم بها وذلك في سالف الزمان، ولكنها جُرّدت منهم على ما يبدو بعد عهد النبي سليمان عليه السلام.

لقد تأكّد لي كم نحن مستبدّون وظالمون في نظرتنا المشوّهة إليهم، لأنهم في حقيقتهم مخلوقاتٍ ألطف وأقل وحشيّةٍ منا، فهم على الأقل لم يُبيدوا بعضهم بعضاً بلا رحمةٍ في حروبٍ عالميةٍ وأهليةٍ، ولم يُدمّروا البيئة ويقضوا على الزرع والنسل أينما حلّوا وارتحلوا، ومن هذا المنطلق فإنني أعتقد أنه يتوجّب القيام بما يمليه عليّ ضميري في هذا الشأن وأن......

قطع عليّ هوشيار حبل أفكاري عند هذا الحدّ..

– ها قد وصلنا يا أميرتي.

اخترقنا صفّي الحرّاس الذين ارتصّوا عن جانبينا، وولجنا إلى الساحة الممتدّة أمامنا عبر بوابة الإيوان الذي هالني ضخامة بنيانه وطلاء جدرانه القاتمة، ثم توقّفنا..

لقد كان مشهداً مهيباً بحقّ لم ولن تبصر عيناي مثله في حياتي، فأمام المبنى الرئيس وعلى مدّ البصر من أقصى يميننا وأمامنا وحتى أقصى شمالنا كان في استقبالنا العشرات إن لم يكن المئات من الجنود، وعددٌ لا يُستهان به من الوجهاء، كما يتضّح من أزيائهم. لقد تسمّرت في مكاني واقشعرّ بدني رغماً عني من هول المنظر الذي أشاهده ومن صوت الأبواق الممتزج بقرع الطبول إيذاناً ببدء مراسم التنصيب، لقد كنت أشعر لحظتها وكأنني أشاهد فيلماً سينمائياً ثلاثيّ الأبعاد لا مشهداً حقيقياً ينضح بالواقعية..

– هيا بنا يا أميرتي.

تقدّم بنا هوشيار بخطواتٍ ثابتةٍ، بعد أن جذبني بلطفٍ بذراعه الملتفّة على ذراعي باتجاه عوكام الذي عرفته من هيئته الرزينة ولحيته الكثّة وتوسّطه للحشود، وما أن أصبحنا على بُعد عدة أمتارٍ منه، حتى أشار لنا بالتوقّف، ثم هتف بصوته الجهوري:

– يا أهالي آدوم الكرام، إنه في ظهيرة هذا اليوم العظيم من عام 2949 سليماني، أعلن لكم جميعاً عن تنازلي الأبديّ عن الأمارة لصاحب الجناب الأمير هوشيار بن أفوداي.

هلّل الجميع في صوتٍ هادر، بينما تناول عوكام التاج الذهبي المرصّع بالجواهر من أحد السدنة إلى جواره، وتقدّم إلينا مع أصوات قرع الطبول التي كانت تتصاعد بانتظامٍ مبدع حتى وضع التاج على رأس هوشيار، وما لبث أن أومأ إلى الجميع بكلتا يديه وهو ينادي:

– فلتحيّوا أميركم.

تنحّى بجانبنا، بينما ابتدأت الاستعراضات المبهرة المعدّة سلفاً من أجل هذه المناسبة.. ما بين عروضٍ حركية تفوق الخيال للجنود الذين انقسموا على هيئة تشكيلاتٍ متنوّعة راجلةٍ وطائرةٍ على ظهور الدواب المجنّحة العجيبة الشكل، وبين أهازيج مثيرةٍ ومبهمةٍ لعدة فرق غنائية اقتحمت الساحة برفقة العشرات من النساء اللاتي يؤدين رقصاتٍ ملفتةٍ تشبه إلى حدٍ كبير تلك الرقصات الشهيرة والمميزة للغجريات في كل أنحاء العالم.

وأثناء الاحتفالات المبهرة، ومع احتشاد الجماهير الغفيرة من أهالي آدوم على بوابة الإيوان وفوق أسوار ساحته والسعادة ترفل على وجوههم، توافد إلينا جمعٌ من الوجهاء مباركين ومهنّئين، وعلى رأسهم صديق هوشيار المُقرَّب إلى قلبه سيبان، والذي عرّفني عليه بعد أن احتضنه الأخير والدموع تفيض من عينيه في لقطةٍ مؤثرةٍ جداً، ولم يسمح هوشيار لسيبان بالمغادرة، بل استبقاه على ميمنته بينما أنا أقف على ميسرته، وما أن انتهى صفّ المهنئين الذين قدموا بالعشرات للسلام علينا، حتى مال هوشيار على صديقه، وأخذ يحدّثه حديثاً مهمّاً ومطوّلاً بصوتٍ خافتٍ لا أكاد أسمعه.

كانت الاستعراضات لا تزال تتوالى والشمس تأخذ طريقها نحو الغروب في هذا النهار الحافل الذي لا أظنّه قد مرّ على أحدٍ من البشر قبلي، وأقبل علينا عوكام مودّعاً، وقد لاحظت أنه يملك وجهاً صارماً خالياً تقريباً من الانفعالات. لقد غادرنا مباشرةً بعد أن قدّم لهوشيار وزراء آدوم الثلاثة والمساعد الشخصي السابق له، وبدا جليّاً أنهم كانوا جميعاً يعرفون بعضهم بعضاً بشكلٍ جيد، ثم حلّ علينا الغسق، فغادرنا نحن والوزراء أيضاً الساحة الخارجية إلى داخل الإيوان الذي امتلأت جنباته ببعض الحرس والكثير من الخدم والخادمات، ولقد شدّ انتباهي أنه كان متواضع الإضاءة من الداخل، وكأننا لا نزال نقف في الخارج مع وقت المغرب، وعندما تأملت الردهة والممرّات الممتدة أمامي، تأكّد لي أن الجدران تحتوي على الكثير من المشاعل الموزّعة بإتقان لتضيء الإيوان من الداخل، ولكنها كانت كلها مطفأة لسببٍ أجهله، وكان هذا مستفزّاً لي طبعاً، فالمفروض أن يُضاء

المكان جيداً مع هبوط الليل، على الأقل من باب الترحيب بالأمير الجديد. لم أحتمل أكثر، فملتُ على هوشيار في توتّر وهمست:

– ألا تلاحظ معي أن الإيوان معتم قليلاً من الداخل؟ لماذا لا يضيئون المشاعل هنا كما ينبغي؟

– ربّما ينتظرون حلول الظلام بالكامل يا حبيبتي ثم يضيئون كل شيء، فنحن نتمتّع بقدرة جيّدةٍ على الرؤية ليلاً، ونختلف عنكم في هذا، وعلى كل حالٍ، لا تقلقي، سننتهي من الوزراء وسأجعلهم يفعلون ما يجب حسب الترتيبات.

بدأت أشعر لأول مرة منذ وصولي إلى هنا ببرودة الطقس القارس الذي كان يجتاح كل مفاصلي وعظام جسدي، حيث أني لم أحتط جيداً بالملابس الكافية للتدفئة خاصةً أننا في أواخر فصل الشتاء، كما أني بدأت أحسّ بالإرهاق الشديد والدوار والعطش الفظيع، ربما جرّاء وقوفنا الطويل دون استراحة منذ الصباح وحتى الآن إضافةً إلى عدم شربي للماء أو تناولي لأي طعام منذ الليلة البارحة، ولكن لا بأس، سأتحامل على نفسي قليلاً ريثما ينتهي هوشيار من هؤلاء الوزراء والمساعدين، وبالتأكيد سيدبّر لي الخدم شيئاً من الماء والطعام.

توقّفنا لبعض الوقت في باحة الإيوان، حيث تلّقى مساعد هوشيار ووزراؤه بعض التوجيهات العاجلة منه، وعلى رأسها قراره المفاجئ لهم بتعيين سيبان وزيراً أولاً لآدوم، ومنحه إياه الدار السلطانية الأقرب للإيوان، وذلك ليظلّ على تواصلٍ دائمٍ معه، وانصرف بعدها الجميع، وكان آخرهم سيبان الذي شكر هوشيار كثيراً، ووعده بالولاء والتفاني في خدمته وخدمة كل أهالي آدوم.

مضى بي هوشيار وهو يلاطفني إلى جناحنا الخاص، وكان من الغريب أنّه يتمشّى في المكان بثقة العارف بكافة زواياه وتفاصيله، أما أنا فقد كنت أجرّ الخطى في تثاقل، وكل جسدي يرتعش من الإعياء، ولأنني لم أشأ أن أزعج هوشيار بحالتي المزرية وهو في قمة سعادته وانتصاره، فقد واصلت السير إلى جانبه حتى وجدنا عند باب الجناح الخاص تلك الخادمةً الجميلة التي عرّفتنا بنفسها أوّلاً، ثم طرقت على الباب الضخم للجناح، فانفتح لنا بهدوءٍ على مصراعيه، وصوت الخادمة القادم من خلفنا يرنّ في أذني..

– أقدّم لك مولاتي وصيفتك الخاصة.. زنبقة.

- مرحباً بك مولاتي.

كانت تلك الجملة المقتضبة صادرة عن الوصيفة الخاصة التي فتحت لنا الباب من داخل الجناح بينما هي تقف أمامنا مرحّبة، وما أن وقعت عيناي على وجهها حتى توقّف قلبي وشهقت بلا وعي بعد أن شلّتني المفاجأة الصاعقة..

لا، لا، لا، هذا مستحيل..

ما هذا؟ عيناي وأذناي لا تكذب..

رحماك يا الله، إنها لم تكن الوصيفة الخاصة، بل كانت أختي خولة بشحمها ولحمها وصوتها وابتسامتها!!!

وفي لمح البصر، أظلمت الدنيا من حولي تماماً، وسقطت مغشيّاً عليّ بلا حراك.

(14)

كما يُقال دوماً:

«المصائب لا تأتي فُرادى»..

هذا على الأقل ملخّص ما يجري لنا منذ بداية هذه العاصفة من الأحداث التي دكّت أنفسنا، وأرهقت عقولنا، ومزّقت عائلتنا، وكلما حاولنا تجاوز إحدى تلك المصائب وقعنا في أختها الأشدّ والأنكى، حتى أنّي أجزم وقلبي مطمئن بإمكانية تحويل قصتنا المأساوية هذه إلى روايةٍ عظيمةٍ لو وقعت فقط بين يدي روائيٍ مبدع، فهي قصةٌ تُلهب زناد الفكر والإبداع لدى أيّ أديب أريب، وقد تُستلهم منها أعظم الملاحم، وآخر حلقةٍ من مسلسل الأحزان هذا الذي نعيشه هو هروب حنان الممسوسة بذلك الإبليسي الحقير من المنزل، وماذا عساي أن أقول إلاّ كما يقول المؤمنون الصابرون: حسبنا الله ونعم الوكيل.

فبعد أن امتنعتُ عن فتح باب غرفتي لهم، خوفاً من أن يؤذيني ذلك الشيطان المريد، سمعت أصوات جلبةٍ تطوف بالمنزل، وهو ما زادني رعباً منه وخشيةً على حنان من بأسه، وما أن اختفت تلك الأصوات وهدأ كل شيءٍ حتى بدأت أهدّئ من روعي لأفكّر بحكمةٍ وذكاء، ولكون التوتّر والإرهاق قد أخذا مني كل مأخذ بعد سهرتنا المتعثّرة تلك، فقد غفت عيناي رغماً عني لساعةٍ أو ساعتين، ولا أعلم كيف حدث ذلك، وكأنما هو سحرٌ قد غشيني على حين غرةٍ مني، استيقظت منزعجاً وخرجت على الفور من غرفتي نحو غرفة حنان التي كان بابها مفتوحاً، ولقد هالني ما رأيت هناك..

لقد كان كل شيءٍ تقريباً في الغرفة في غير موضعه، وكأن قطاراً سريعاً قد مرّ قبل دقائق من هنا. كل شيء كالملابس والمفارش والمراتب حتى بعض قطع الأثاث قد تمّ تحريكها في عبثيّة، ولم يكن حال الحمّام أفضل كثيراً، فالمكان كلّه يعجّ بالفوضى العارمة والرائحة النتنة وبقايا الأكل والعظام والقاذورات والحشرات، وكأنه مكبٌّ للنفايات لا غرفة فتاة!

تفقّدت باقي المنزل، فوجدت كل الأبواب المؤدّية إلى الخارج مفتوحة، وقد اختفت سيارة أبي أيضاً، ولذلك عدتُ إلى غرفتي كالمجنون، واتصلت على هاتف حنان الجوال أكثر من مرة، ولكني اكتشفت أن رنين جرسه ينبعث من داخل غرفتها، وبالفعل، فقد وجدته ملقىً بإهمالٍ على الأرض بجانب السرير.

أعترف بأنني كنت متردّداً منذ اكتشفت حالة حنان في إخبار عبد الله، وكان كل تفكيري منصبّاً على التروّي لإيجاد أي مخرجٍ يجنّبني اللجوء إليه، لا لشيءٍ إلاّ لمعرفتي بأسلوبه الحادّ في حلّ مثل هذه الأمور، إذ لا توسّط عنده في اختيار وتنفيذ الطريقة الأسرع والأنجع عند عزمه على مسألةٍ ما، وذلك على الرغم من لينه وحسن معشره في باقي شؤون حياته، وهو الطبع الحاسم الذي ورثه عن أبي، ولكوني وُضعت دون حيلةٍ مني في هذا الموقف العصيب، وبعد أن وصلت الأمور إلى هذا الحدّ الذي لا خير في التأخير بحسمه، فإني لا أملك في جعبتي أي اختياراتٍ مرنةٍ أخرى للأسف، والمثل الشعبي الدارج عندنا في نجد يؤيد تماماً ما أنوي الذهاب إليه..

«ما دون الحلق إلاّ اليدين».

وعلى الفور، أيقظت عبد الله من نومه وأخبرته بكل ما حدث بالتفصيل دون إغفال ذكر أيّ ملاحظةٍ، وبعد أن تلقّى صدمة الخبر المروّع ولأنه يتحلّى بحسن التدبير والتخطيط منذ طفولته فقد حلّل الحادثة في هدوءٍ عجيب بالتشاور معي..

– وين تتوقّع إنها راحت؟

– والله يا عبد الله ما أعرف مكان معين ممكن تلجأ له في مثل هذا الموقف.

– أعتقد إن الموضوع يعتمد على التالي: هل هي الي انحاشت، ولا الجنّي هو الي خطفها؟

– خطفها؟ أنت أكيد تقصد إنه أغراها بمكان يهربون له، وهذا الي أنا أميل له.

– لا، أنا حرفياً أقصد خطفها!

– معليش يا عبد الله، لكن كيف يخطفها بالضبط؟

– بمعنى أدقّ، تحكّم بحركتها وهو متلبّس فيها، وودّاها إلى وجهته الخاصة فيه.

– أعوذ بكلمات الله، يا ويل قلبي عليك يا حنان.

– دايماً يصير كذا في حالات الجن العاشق، يا ما سمعت عن قصص كثيرة صار معهم هالشيّ.

– أنا خايف عليها بعد تتورّط في حادث بالسيارة، لا تنسى إنها ما تعرف تسوق زين.

– فعلاً، عسى الله يستر.

أوجعني قلبي بشدّة، واغرورقت عيناي بدموع الحزن المُمضّ، فقد ارتعت من مجرد التفكير في فقدان حنان إلى الأبد، فهل يا تُرى يُكتب عليّ رحيل أُختيّ الحبيبتين الواحدة تلو الأخرى، وبهذا السيناريو الفظيع؟

– شفيك؟ أذكر الله وأنا أخوك.

اختلط نشيجي المُترع بالأسى بكلماتي..

– إلاّ حنان يا عبد الله، والله لو يصير لها شي لأموت، روحي معلّقها فيها من خلقنا الله.

– إنّا لله وإنّا إليه راجعون، بإذن الله نلقاها وهي بخير وعافية، ثق بالله يا رجل.

– يا ربّي حنا في رجاك.

– الآن لازم نبلّغ الشرطة، وبنفس الوقت بندّور عليها في كل مكان نعتقد إنها ممكن تروح له، ضروري نشتغل على كل الجهات بنفس الوقت، لأن عامل الوقت مهم جداً.

– وين ندوّر عليها فيه بس؟

– لا تخاف، ربّك بيدبّرها.

أسرعنا إلى سيارة عبد الله، بينما خطيب الجامع القريب يحدّث بخطبة صلاة الجمعة عبر مكبّرات الصوت المدوّية، وما أن تحرّكنا خارج حارتنا حتى خطر على بالي ذلك السؤال..

– طيّب، شرايك، متى نبلّغ أمي وأبوي؟

رمقني بنظرةٍ ملتهبةٍ..

– إيّاني ويّاك تبلّغهم بشي الحين!

– متى أجل؟

– بعد ما نلقاها يصير خير.

– طيّب على الأقل نبلّغ خالي عمر بشكل سرّي، ونوصّي عليه ما يعلم أمي، ما تدري يمكن يساعدنا في عملية البحث عنها بشكل أسرع.

– أقول لك لا تعلّم أحد أبد، تفهم؟

– أبشر، الي تشوفه.

طالت بنا الإجراءات الاحترافية في مركز الشرطة المجاور لمنزلنا، وتنوّعت تلك الإجراءات بين التحقيق معنا على عجل حول أوصاف سيارة أبي ودقائق طباع حنان وسلوكياتها، وبين كل الاحتمالات الأخرى الواردة لتفسير ما حدث لها، وأخيراً خطوات التعميم بالسيارة على كافّة مراكز الشرطة داخل وخارج مدينة الرياض ونقاط التفتيش والضبط، بالإضافة إلى سيارات الدوريات الأمنيّة.

خرجنا من المركز لا نلوي على شيء، ووقفنا برهةً عند الباب الخارجي والتفكير يستغرق منا الكثير، وباغتني عبد الله بسؤالٍ أحرجني..

– تعرف أي اسم من أسماء صديقات أو زميلات حنان؟

– لا.

أجبت عليه في عجل، بينما كنت أراقب ردّة فعله على إجابتي ونبضات قلبي تتسارع شيئاً فشيئاً، وقفز اسم سمر فوراً إلى رأسي بعدما استحضره سؤال عبد الله المباغت..

– حاول تركّز، أرجوك يا طارق.

– والله مركّز جداً.

– ياخي حنان دايماً تكلّمني عن وحدة من صديقاتها المقرّبات ويمكن أعزّ صديقاتها، لكن ناسي اسمها.

– قلت لك، والله ما أعرفهن.

– ترى هذي الي أكلمك عنها ساكنة في أحد الأحياء المجاورة، والله أعلم إنها غالباً ساكنة في حي المغرّزات إذا ماني بواهم.

تأكّد لي أنه بالفعل يقصد سمر لا غيرها، فهي بالفعل تسكن هناك، وشعرت لوهلة وكأنه يستطيع قراءة أفكاري فأشحت بوجهي عنه محدّقاً إلى جموع السيارات التي تسلك الشارع الواسع أمامنا..

– ويعني إذا عرفنا اسم صديقاتها، وش بنستفيد؟

– لو نعرف بس اسم الصديقة وعايلتها، بيساعدونا الشرطة في التواصل معها، لأنها يمكن تعرف عن حنان شي حنا ما نعرفه، ولا تنسى إن أي معلومة عنها حالياً وفي هذا الظرف ممكن تكون مهمة جداً.

– صدقت، فعلاً كلامك صحيح.

– بهالحالة أنا أقترح مبدئياً ناخذ دورة على الرياض، ونمشّط الطرق الدائرية كلها، شرايك؟

– فكرة سديدة، مشينا.

عاد اسم سمر ثانيةً إلى مخيّلتي دون تعمّد، حقاً، قد تكون لديها معلوماتٍ ذات أهمية عن حنان، فالفتيات عادةً يتبادلن الأسرار الخاصة فيما بينهنّ، ومن يعلم، فلربما ذكرت حنان لسمر شيئاً عمّا كان يحدث معها مؤخراً..

– عن إذنك لحظة، برجع للمركز، حصران وأبي الحمام، اسبقني أنت للسيارة، ما راح أطوّل.

عدتُ أدراجي مسرعاً إلى داخل المركز، وأجريت اتصالاً خاطفاً على غير العادة مع سمر:

– مساء الخير.

– هلا وغلا، مساء النور.

– كيفك؟

– أنا بخير يا قلبي، أنت كيفك؟

– أبشرك بخير ولله الحمد.

– دوم إن شاء الله.

– معليش حبيبتي أنا مستعجل شوي الحين، وكان ودّي أسألك سؤال بايخ بصراحة لكن ضروري.

– ولا يهمّك، اسأل يا قلبي.

– متى آخر مرة كلمتي فيها حنان؟

– ليه؟ عساه خير؟

– إيه بخير، بعدين بشرح لك، بس حاولي تتذكّرين أرجوك.

– والله مب متذكّرة بالضبط، لكن لي فترة عنها.

– فترة كم تقريباً؟

– إممم، أظن آخر مرة كلمتها كانت بعد العزاء بإسبوع تقريباً، يعني بعد ما تركت أمك البيت مباشرة، وصرت عقبها أدّق عليها لكن ما تردّ على اتصالي.

– إيه، فهمت.

– سؤالك واتصالك غريب يا طارق، شفيها حنان بالله عليك؟ بذمتك صار لها شي؟

– لا والله ما فيها شي، تطمّني، بس كانت تعبانة شوي عشان كذا يمكن ما قدرت تردّ عليك، لكنها أفضل الحين ولله الحمد.

– ألف سلامة عليها، تعبانة من أيش؟

– الله يسعدك، خلاص بكلمك بعدين يا حبيبتي، لأني حيل مستعجل.

– أوكي يا قلبي، لا تنسى تطمّني عليها.

– أبشري يا حبيبتي، فمان الله.

كان الوقت يسرقنا، والنهار يوشك على الرحيل، ونحن نتجوّل بالسيارة منذ ساعتين دون توقّف على الطرق الدائرية التي تحيط بالرياض، كنّا نغوص في بحرٍ من الصمت المثير وأعيننا ترصد في ترقّب كل شيءٍ يدبّ معنا على الطريق، أنا تولّيت تفحّص كل ما نتجاوزه عن يميننا من السيارات المتوقّفة عند المباني والأشخاص الذين نمرّ بهم، وعبد الله تولّى الأمام والجهة الأخرى، وما إن انتهينا من الاتجاه مع عقارب الساعة حتى استدرنا من فوق أحد جسور المخارج، وعكسنا اتجاه مسارنا.

ويأتي الفرج مع البشرى، يأتي كالدواء الشافي لوجع الخوف والقلق والحزن، تُشفى فتنسى أوجاعك، وكأنك لم تشتكِ لحظةً واحدة! اللهم لك الحمد والشكر حمد الشاكرين..

للتوّ تلقيت اتصالاً من الضابط المسؤول يبشّرنا بعثورهم على حنان خارج الرياض في منطقةٍ صحراويةٍ تقع قبل القويعية، وعلى مسافةً قريبةٍ جداً من الطريق السريع الذي يربط بين الرياض والطائف، وقد طمأنني الضابط بأنها في صحةٍ جيدةٍ، وسيارة الإسعاف التابعة للهلال الأحمر تتولّى نقلها الآن إلى أحد مستشفيات الرياض، وسيوافيني بكافة التفاصيل حال ورودها إليه.

أوقف عبد الله السيارة على جانب الطريق، واحتضنني مطوّلاً في ارتياحٍ بالغ، والانفعالات العاطفية تغلب على كلينا، ولم تنقضِ الساعة حتى كنّا في قسم الطوارئ داخل المستشفى الذي ترقد فيه حنان، لقد كان مزدحماً بالمرضى والمراجعين، وبعد أن دلّونا إلى سريرها، ألقينا عليها نظرة من خلف الستارة، كانت تبدو في وضعٍ مزرٍ وهي تتمدّد على سرير الطوارئ، شاخصةً ببصرها إلى سقف الغرفة، وعددٌ من الأجهزة الطبية موصولةٌ بكلتي يديها..

– أنتم أخوان حنان؟

التفتنا خلفنا، فإذا بطبيب الطوارئ يقف متسائلاً، سبقني عبد الله إلى الحديث معه..

– إيه يا دكتور، أرجوك طمنّا عليها.

– تطمّنوا، ولله الحمد وضعها العام ممتاز، تعالوا معي شوي بعد إذنكم.

عرّفنا بنفسه وهو يقودنا إلى عيادةٍ ملحقةٍ بقسم الطوارئ، وما إن أغلق باب العيادة خلفنا وجلسنا، حتى بادرنا بالسؤال وهو يسجل ملاحظاته على الأوراق الطبية الموضوعة على سطح طاولته..

– إيش الي صار مع حنان قبل ما يلقونها الشرطة؟

– ودّنا تطمّنا على وضعها الطبي بالأول يا دكتور، وأكيد راح نجاوبك على كل استفساراتك.

– قلت لكم تطمّنوا تماماً، وضعها الطبي الآن مستقرّ بعد المغذّيات، ونتائج تحاليلها العاجلة تدلّ على إنها كانت تعاني من حالة جفاف وانخفاض في مستوى السكّر، ولكن جاري تصحيح الوضع حالياً، وبعد شوي بينقلونها للغرفة بجناح الباطنة تحت الملاحظة للاطمئنان فقط حتى باكر.

– الله يبشّرك بالخير، لكن كيف كانت حالتها أوّل ما لقوها؟

– حسب كلام أفراد الشرطة إلي قابلتهم وتقرير الهلال الأحمر الي جابها، الي لقاها بعد صلاة المغرب كان راعي إبل، وقال إنها كانت طايحة ومغمى عليها في منطقة صحراوية خالية، وسيارتها المغرّزة مو بعيد عنها كثير، وطبعاً هو بلّغ أمن الطرق الي أنقذها واستدعى الهلال

الأحمر فوراً، وبمجرد إسعافها وهم بالطريق داخل السيارة فاقت من الإغماء، ولكن ما كانت تبي تتكلّم مع أيّ أحد، وتجاوبها مع الأسئلة لا زال ضعيف للحين، وهذا أمر طبيعي في مثل هالحالات.

– أنت متأكد يا دكتور إن المكان الي لقوها طايحة فيه صحراء جرداء، يعني ما حولها هجرة ولاّ قرية ولاّ خرابة أو أي شي من هالقبيل؟

– أبداً، يقولون ولا أي شي حولها، صيهد ما فيه لا شجر ولا حجر، وكان موقعها حوالي كيلوين شمال خطّ الرياض الطايف السريع، وعموماً تقدر تتأكّد أكثر عن طريق النقطة الامنية الي هنا في المستشفى، لأنكم لازم تمرّونهم الآن وتنهون إجراءات البلاغ وكفّ البحث وأمور سيارتكم حسب ما أفادني أفراد الشرطة.

– أكيد يا دكتور.

أنهينا مقابلة الطبيب الذي سألنا بدقة عن وضع حنان الطبي والنفسي قبل مغادرة المنزل، وقد أجبناه بكل شيءٍ عنها بلا استثناء، حتى حالة المسّ والتلبس التي تعاني منها!

توجهنا إلى حنان من جديد، وسلّمنا عليها، ولبثنا عدة دقائق معها، وقد اطمأنّينا عليها وطمأنّاها، وعلى الرغم من اتفاقي مع عبد الله بعدم التطرّق إلى أي شيءٍ يخصّ حادثة الاختفاء من المنزل أو قصة الجنّي العاشق، إلاّ أنّ وجومها وتحفّظها المفرط أثناء حديثنا معها يشي بأنها كانت تحاول أن تخفي عنّا أمراً ما، أو أنها خائفةٌ من شيءٍ ما، أو من ردّة فعلنا تجاهها.

أجرى عبد الله اتصالاً بأمي، وآخر دولياً بأبي، وطمأنهما على حالة حنان الراهنة، مدّعياً أنها قد تعبت فجأةً أثناء حبسها لنفسها في غرفتها لمدة ثلاثة أيام دون سببٍ معلوم.

وقد أقبلت أمي برفقة خالي عمر لرؤيتها على عجل، وذلك بعد أنّ نقلوها إلى تلك الغرفة في الجناح الباطني والتي تشاركها فيها ثلاث مريضاتٍ أُخرياتٍ، بينما اتجه عبد الله إلى النقطة الأمنيّة بالمستشفى لإنهاء كافّة الإجراءات النظامية العالقة.

غادرتنا أمي وخالي عمر بعد أن وعدت حنان بالعودة غداً في وقتٍ باكر، وبقينا نحن مع حنان التي تحسّن وضعها كثيراً بعد تناول وجبة العشاء المتأخّرة، وأصبحت قادرة على الحركة بكامل نشاطها، وعادت لتتفاعل معنا بشكلٍ طبيعي من جديد ولله الحمد، وهو الأمر الذي شجّع عبد

الله الذي كان يجلس على الكرسي المجاور لرأس السرير على مباغتة حنان، بعد أن مال عليها هامساً:

– الحمد لله إنّك رجعتي لوضعك الطبيعي، عشان أقدر أعلّمك إنّي أنا وطارق قرّرنا ما نعلم أحد أبداً بالقصة الحقيقية الي صارت معك، ولذلك لفّقت حكاية مفبركة إنك تعبتي علينا بالبيت لأنك كنتي صايمة لمدة ثلاثة أيام، لكن بالمقابل، وأرجوك تتعاونين معنا عشان نقدر نساعدك في محنتك الي تمرّين فيها، أبيك تعلمينا وبدون ما تخبين أي شي عنّا بكل تفاصيل قصتك إنتي والجنّي العاشق، ومن بدايتها حتى نهايتها.

رمقته حنان بطرفٍ غاضب لا ينمّ أبداً عن طبيعتها اللطيفة..

– أي قصة يا عبد الله؟ وعن أي جنّي عاشق تتكلّم؟

– أيوووه، كذا بنبدا غلط.

– والله مدري عن أيش تتكلّم؟

– لا حول ولا قوة إلاّ بالله، بدينا بالاستهبال اللي ما أحبّه، أقول لك بتعترفين بكل شي وبدون ما ترفعين صوتك عشان ما تسمعنا إحدى هالمريضات الي جنبنا، ولاّ تري لي تصرّف ثاني معك يمكن ما يعجبك.

– وش أعترف لك فيه بالضبط؟ وراك تكلّمني كذا وكأنّي مجرمة يحققون معها؟

– اللهمّ صبّرك يا روح، خلّصينا، طارق شافك أنتي وإياه تتمشّون في البيت، وشفنا كلنا عفسة غرفتك وتركك جوالك وكل أغراضك ونسيانك أبواب البيت مفتوحة وسرقة سيارة أبوي بعد ما أجبرك هاللعين تهربين من البيت، مدري وين كان مودّيك له.

– والله يا عبد الله مدري عن شي، ولا فيه جني عاشق ولا هم يحزنون، ولا أدري وش ودّاني للبرّ، لأن آخر شي أتذكّره إنّي كنت قاعدة في أمان الله في غرفتي أمس، وفجأة انصرعت وطحت، ولا أذكر ولا أدري عن أي شي بعدها أبداً، أقسم لك بالله هذا اللي أعرفه.

انهارت بالبكاء في مشهدٍ يقطّع نياط القلب، وتبادلت أنا وعبد الله نظرات الشفقة والأسى عليها، ثم استأذنّا منها مغادرين، وقبّلناها على جبينها، وتمنّينا لها نوماً هانئاً، لا بد أنّها تقول كل الحقيقة التي تعرفها، فحنان لا تكذب قط مهما جرى، وبالتأكيد أنها لا تعلم بأنها ملبوسةٌ بفكر وجسد ذلك الجني الشيطاني اللعين الذي يعشقها، ولكننا سنجد طريقةً ما لإخراجه منها وحرقه أيّا ما كلّفنا الأمر.

(15)

انتظرتُ بفارغ الصبر خروج عبد الله وطارق من غرفة حنان ليحلّ الهدوء في المكان، ولأول مرّة منذ وصولنا إلى هذا المستشفى الذي لا يهدأ، وأخيراً، وبعد كل هذه الأحداث المؤسفة التي أفسدت يومنا التاريخي، سيخلو لي الجوّ للاختلاء بحبيبة عمري حنان.

حيّيتها في رقّةٍ وأنا أمسك بيدها، كانت ترقد على سريرها بعدما أزالوا عنها كل الأجهزة التي كانت تتصّل بها، ولقد بدا جليّاً أن التفكير يستحوذ عليها، وما أن سمعت صوتي وأحست بيدي حتى أضاءت ملامح وجهها وهي تبادلني التحية بصوتٍ هامس، جلستُ إلى جوارها على طرف السرير الذي يجاور الجدار، لأبتعد قدر الإمكان عن سمع المريضة المجاورة لها والتي لا يفصل بين سريريهما إلاّ تلك الستارة البيضاء، لقد قرّرت بعد طول تأمّل وتفكّر أن أعرضَ عليها مفاجأتي الكبرى آملاً أن تقبلها، ولكنها بادرتني معاتبة..

– بالله عليك، أين كنت؟

– أنا لم أفارقك لحظةً واحدةً يا قرّة فؤادي منذ فقدتِ وعيك.

– لم تفارقني، أين كنتَ عنّي إذن؟ وكيف سمحتَ لهم أن يأخذوني هكذا من بين يديك دون أن تقاتل دفاعاً عني أو تقاومهم على الأقل؟

ثم أين اختفت أختي خولة التي رأيتها بأم عينيّ تقف أمامنا مكان الوصيفة زنبقة؟

لقد أرهقني التفكير يا هوشيار في كل هذه الأسئلة منذ أفقت من غيبوبتي، أرجوك أخبرني.

– لا تعتبي عليّ يا حبيبتي، سأخبرك بكل ما جرى، وسأجيبك عن كل أسئلتك، وستعرفين بنفسك لماذا لم أقاتل عنك، ولكني أرجوك ألاّ تقاطعيني حتى أنتهي من رواية الأحداث، اتفقنا؟

– كلّي آذانٌ صاغية، وأرجو أن أجد لك عذراً، لأني أشعر بغصّةٍ موجعة كلما تذكّرت أنك قد خذلتني يا هوشيار.

– لا وربك، لم أخذلك، ولن أخذلك يوماً ما حييت.

– هذا هو عشمي، ما الذي جرى إذن؟

– سأبدأ من خطة عوكام القذرة للقضاء عليّ، فقد استعان بسحرٍ أسود فتّاك صنعه بلا شكّ قبل قدومنا لدى أحد سحرة الجن الكبار، وحملته تلك الفتاة التي أدّعت أنها وصيفتك المسمّاه زنبقة، والحقيقة أنه قد هيّأها لتطابق تماما شكل وصوت أختك خولة، وذلك ليربكنا للحظات، ريثما تنثر السحر عليّ فيقتلني، ولكن الغبيّة ارتبكت فيما يبدو وأخطأت الهدف، وأصابتك إصابةً مباشرة، فامتصّ جسدك الإنسيّ أغلب السحر الأسود، بينما كانت إصابتي أنا والخادمة التي رافقتنا وباقي سكّان آدوم مخفّفةً، وهذا من رحمة الله بنا جميعاً.

ولأنك إنسية ولا يقتلك ذلك السحر المخصّص لإبادة الجن، فقد أفقدك وعيك فقط وسقطتِ مغشيّاً عليك، أما أنا والخادمة وباقي أهالي آدوم فقد نجونا من الموت بأعجوبة ولم ينلنا منه إلاّ أخفّ الأثر، حيث تجمّدنا في أماكننا جميعاً لبعض الوقت، وهو نفس الوقت الذي حضرت فيه مركبات الشرطة والمنقذين، لقد رأينا كل ذلك بأعيننا ولكننا جميعاً لم نكن نقوى على الحراك أبداً، وقد حملوك داخل المركبة وانصرفوا في نفس اللحظة التي اختفى فيها مفعول السحر، فوجّهت سيبان الذي أقبل حالاً للاطمئنان علينا بمطاردة اللئيم عوكام وزمرته الخبيثة الذين هربوا من آدوم قطعاً والقبض عليهم، بينما لحقت بمركبتكم طيراناً على أسرع دابةٍ مجنّحةٍ في القرية كلها، حتى تمكّنت من التشبّث بمؤخرة المركبة وهي تسير مسرعةً في طريقها إلى الرياض، وحاولت مراراً فتح الباب الخلفّي لها لكي أراك، ولكن دون جدوى، وما إن وصلنا هنا وأنزلوك من المركبة واطمأنّ قلبي عليك وقد استعدتِ وعيكِ، حتى رافقتك خطوةً بخطوة دون أن يشعروا بي، وكما تعلمين فإنهم كانوا لا يتركونك طوال الساعات الماضية، وهذا ما جعلني أتريّث قليلاً حتى تهدأ الأمور وأتمكّن من الخلوة بك، هذا باختصار كل ما حصل يا حبيبتي.

– يا إلهي، فعلاً لقد نجونا من مكيدة عوكام اللعين بأعجوبة.

– لقد أقسمت أنه لن يفلت مني أبداً ولو كلّفني ذلك ما تبقّى لي من عمري.

– دعنا منه الآن، وأعلم أني قد سامحتك يا هوشيار، ولن أقول شيئاً سوى حمداً لله على سلامتك وسلامتي يا حبيب العمر.

كانت الابتسامة الساحرة تطوف بمحيّاها وهي تنظر إليّ، ثم فتحتْ لي ذراعيها في حركةٍ مفاجئة، فاحتضنتها بقوةٍ، وزال عنّي في غمضة عينٍ كل ما كابدته خلال هذا اليوم الطويل جداً من تعبٍ وهمٍّ.

– خبّأتُ لك خبيئة.

– ما هي؟

– سأخبرك دون مقدمات.

– قل يا حياتي.

نزلتُ من على السرير في هدوءٍ، وألصقتُ ظهري بالجدار خلفي وأنا أجثو على ركبتيّ، وكانت تحاول استنتاج طبيعة حركاتي دون أن تراني بالطبع، ولذا اقتربتُ من وجهها الصبوح وضممتُ صدرها المغري بذراعي، وقبّلت خدّها في حب، بينما أحاطت هي رأسي بذراعها، وأودعتُ أمنيتي في أذنها..

– حنان، أتقبلين بي زوجاً؟

كانت تهيم بنظرها نحو سقف الغرفة والابتسامة المتوهّجة تغدق عليها جمالاً وتألّقاً..

– قبلت بك زوجاً يا هوشيار.

خُيّل إليّ أن معزوفاتٍ طاهرة قادمةٍ من الجنّة تملأ أركان الغرفة ونحن نذوب في تلك القُبلة التي سرى إحساسها في كل جوانحي من رأسي وحتى أخمص قدميّ، لقد كانت قبلةً نورانيةً تتسامى بأرواحنا، من ذلك النوع من القبلات المكثّفة الشعور التي تتجاوز في معانيها كل الغرائز

والمكنونات الأرضية التي توغّلت في أذهان الجن والإنس ودمغت أحاسيسهم الدنيا، وكأنها في حدّ ذاتها غايةٌ سماويةٌ راقيةٌ تعمل على ترميم النفوس وتسمو بالأرواح إلى آفاقٍ وجدانيةٍ لامتناهية.

تناولت تلك الأوراق التي خبّأتها تحت السرير، ودفعتها إليها في هدوءٍ أنيق..

– لم أجدُ مهراً يليق بك خيراً من قصّة حياتي وحبنا العظيم التي أوجزتها في صفحات هذه الأوراق الخالدة، وذلك لتقرأيها على مهلٍ، وأرجو أن تقبليها منّي يا ثمرة فؤادي.

– هي عندي أغلى مهر يا حبيبي الأبديّ.

لم يفسد علينا لحظتنا الخالدة تلك إلاّ دخول الممرضة ذات الوجه العابس وهي تعطي حنان دواءً أمرتها أن تتناوله في غلظة..

– أيش هذي الحبوب يا سستر؟

– هذي حبوب منوّمة طلبت منّا الدكتورة نعطيك إياها عشان تنامين، لأن الساعة صارت 3 الفجر.

– لكن أنا ما أحتاجها، وبنام بعد شوي.

– لا، بتآكلينها الآن، وإلاّ راح نضطرّ نعطيك إبرة بالقوّة حسب تعليمات الدكتورة.

تناولت حنان الدواء على مضض، وما أن غادرتنا الممرضة حتى خبّأتُ أوراق قصّتي في ذلك الدرج المجاور للسرير، وسرعان ما تثاءبت حنان مراراً وتثاقل كلامها، ثم نامت في عمقٍ شديد.

وهكذا، أكون قد أنهيت قصتي التي تحرّيتُ فيها كل الأمانة والدقّة، وقد أهديتها إلى فاتنتي الإنسيّة حنان، بعد أن أضفتُ إليها عدداً من السطور الأخيرة لتكتمل، وأمّا ما تبّقى من قصتي القادمة معها، فسيبقى سرّاً بيننا نتشاركه باقي العمر.

حبيبك المخلص

هوشيار بن أفوداي

- حاضرة الرياض -

***

لا ترحل..

(16)

– السلام عليكم، أنا الدكتورة/نوف.. الطبيبة النفسية.

أيقظتني تلك الطبيبة المزعجة من النوم مع الضحى، كانت تجلس على الكرسي المجاور لسريري وهي تتفحّصني بعمق بعينيها من خلف نظّارتها الطبية، وإن حاولت جزافاً أن ترسم ابتسامةً مصطنعةً على شفتيها..

– هلا بك يا دكتورة.

– أعتذر منك إني صحّيتك من النوم، لكن واضح إن نومك كان عميق ومنعش بعد الحبّة المنوّمة البارحة.

– آه، إنتي الدكتورة الي أمرتيهم يعطوني المنوّم؟

– إيه أنا، كان لازم تنامين وترتاحين شوي بعد التجربة الرهيبة الي مرّيتي فيها.

– معليش يا دكتورة وبعد إذنك، أنا مدري من الي قال لك إنّي أنا أحتاج طبيبة نفسية، لأني ولله الحمد بخير، وقالوا لي أمس إنّي احتمال كبير أغادر المستشفى اليوم.

– أنا حوّلوا لي حالتك من أمس، ولكني ما حبيت أزعجك البارحة، عشان نقدر ناخذ راحتنا اليوم في الكلام بعد ما تصحصحين وتشبعين من النوم.

– من هم الي حوّلوا حالتي لك؟

– الفريق الطبي الي مسؤول عن حالتك.

– عشان؟

– طيب، بالأول لازم تعرفين إني أنا درست حالتك من أمس وعرفت عنك كل المعلومات الكافية، وقابلت أمّك وأخوانك، وسألت حتى الممرضات الي هنا عنك، وكان لازم أقابلك عشان نناقش حالتك النفسية.

– قلت لك يا دكتورة أنا حالتي النفسية ممتازة.

– أعتذر منك يا حنان، كلامك غير دقيق، وودّي تتعاونين معي، عشان أقدر أساعدك بالطريقة المثلى.

– تساعديني في أيش مثلاً؟ أنا صاحية مب مجنونة، وما أشتكي من شي.

– أكيد إنك صاحية وواعية وتعرفين مصلحتك.

– شكراً، أقدر الآن أستأذنك عشان أبي أطلبهم كوفي.

– إيه من عيوني، وأنا بنفسي بكلّمهم عشان يجيبون لك الكوفي يا حنان.

التقطت سمّاعة الهاتف الأرضي المثبّت فوق الطاولة المجاورة للسرير، وحادثت التمريض في الخارج، وفي الحقيقة أنني لا أستطيع أن أفهم لطف هذه الطبيبة المبالغ فيه معي، على الرغم من محاولتي استفزازها.

طفقت تدوّن بعض الكلمات في الملف الطبي الذي تحمله بين يديها، ولم نحادث بعضنا حتى فرغت من نصف كوب القهوة الأمريكية التي أحضروها لي، لقد كانت في الواقع أسوأ قهوة تذوّقتها في حياتي، ولكنّي كنت في حاجتها بشدّة.

– بالعافية يا حنان، ودّي نرجع لحديثنا.

– والله ما فيني شي يا دكتورة، أتوقّع إنهم يبالغون شوي في الحرص على صحّتي.

– جزاهم الله خير، لكن ودّي أعرف منك هل مرّيتي بتجارب غريبة أو تعبتي نفسياً في الفترة الأخيرة.

– أبداً.

– ولا حبّيتي جنّي مثلاً؟

التفتّ إليها مصدومةً من سؤالها المستفزّ، قبل أن تواصل..

– أقدر أعرف وش كتبتي له طول الليل على الأوراق الي طلبتيها من الممرضات؟

بلغ بي الغضب مبلغه، إذ اتضح لي أنها تعرف عنّي أكثر ممّا توقّعت، يالها من مستفزّة هذه الطبيبة النفسية التي كانت تدّعي اللطف في البداية، ولذلك كان ردّي عليها مستفزاً أيضاً..

– مب شغلك بصراحة.

– وراك عصّبتي عليّ، أنا بس ودّي أساعدك يا حنان، وعشان كذا أحتاج أعرف منك أكثر عن هوشيار؟

وأشارت إلى الدرج الذي وضعت فيه الأوراق الخاصة بقصة هوشيار، إذن أصبح اللعب معها على المكشوف بعد أن اعترفت باطّلاعها على قصته..

– إنتي من سمح لك تفتحين درجي الخاصّ، وتقرين شي ما يخصّك، وش هالوقاحة؟

– أولاً هذا مب درجك الخاص في بيتك أو مكتبك يا حنان، هذا درج الكومدينو الخاص بالمستشفى، وثانياً هذا جزء من عملي كطبيبة نفسية من حقّها تطّلع على كل شي يساعدها على تشخيص حالة المريض وعلاجه.

– ما أسمح لك تسميني مريضة، مب على كيفك.

– طيب يا حنان ولا يهمك، أقصد تشخيص الحالة المرضية الي تعانين منها حالياً.

– الي هي؟

– ممتاز، إنتي تمرّين بحالة ذُهان حاد!

– ذُهان؟

– إيه يا حنان.

– يعني أيش بالضبط؟

– الذُهان الحاد باختصار هو حالة اضطراب عقلي مؤقت ممكن يتسبّب في ظهوره بعض الصدمات النفسية أو الظروف القاهرة، وبالإمكان علاجه تماماً بالأدوية، ولكن لو تمّ إهماله، ممكن يصير مزمن ويتحول إلى فصام عقلي أو أشياء ثانية.

– قصدك انفصام في الشخصية؟

– تقريباً، غير المتخصصين بالصحة النفسية ما زالوا يسموّنه كذا.

– وأيش أعراض الذُهان إلي تعتقدين إنها عندي؟

– الذُّهان إجمالاً له أعراض كثيرة، مثل اضطراب الأفكار إلي نسميها ضلالات، والشكوك المرضيّة، واضطراب السلوك والمزاج، والتوهّمات غير الحقيقية أو الهلاوس السمعيّة والبصريّة، والانفصال عن الواقع، وتراجع القدرة على الحكم على الأمور، والعُزلة الاجتماعية، بالإضافة إلى التدهور الشامل في الحياة الاجتماعية والدراسة والوظيفة، وأسوأ شي انعدام الاستبصار وهو إن كل هذي الأعراض يتمّ ملاحظتها بواسطة أهل المريض أو إلي حوله ولكن المريض نفسه لا يشعر أبداً إنه مُصاب، وعشان كذا ممكن يرفض العلاج لأنه ما يحتاجه من وجهة نظره.

– يا دكتورة الله يهديك بس، كل هذا عندي وأنا ما أدري؟

– لا يا حنان، ممكن بعض أو كل هالأعراض عندك، وممكن تستبصرين فيها وممكن لا، مثل ما ذكرت لك.

– صدّقيني أو لا تصدّقيني يا دكتورة، ولا شي منها والله.

– خليني أكون أكثر صراحة معك، وأصدمك شوي!

– خذي راحتك، لأنه كله بيكون كلام غير صحيح!

– ما فيه جنّي اسمه هوشيار لأنه غير موجود أصلاً، شرايك؟

– طبيعي تقولين كذا، لأن الأطباء النفسيين لا يؤمنون بوجود الجن أبداً.

– غير صحيح، أنا وزملائي من الأطباء النفسيين نؤمن بوجودهم لأنهم مذكورين في القرآن الكريم وكافّة الكتب السماوية والثقافات المختلفة حول العالم، لكن يمكن بعضنا ومنهم أنا نؤمن بأنهم عالم غيبي ما لنا أيّ علاقة فيه، أيضاً لا نؤمن بالتلبّس أو المسّ ولا بتأثير الجن على الإنس ولا بإمكانية رؤيتهم أصلاً، وعموماً شرح هالموضوع بتفاصيله يطول، وأوعدك نتناقش فيه وفي علاقة النصوص المقدّسة بتفسيراتها المتفاوتة بنظرة الناس لهذي الأمور، سواءً عندنا أو في الثقافات العالمية الأخرى.

– ممتاز، لكن على فكرة، هوشيار حقيقة لا شكّ فيها.

– هوشيار موجود في راسك إنتي بس يا حنان!!

– شرايك إنّي كنت أنا ويّاه أمس في قريتهم؟ وإذا منتي مصدّقتني مستعدة أودّيك بنفسي إلى هناك، وتشوفين بيوتهم، واحتمال تشوفينهم بنفسك بعد.

– حنان، الشرطة والهلال الأحمر لقوك أمس طايحة في صحراء جرداء تماماً، لا فيها بيوت ولا خرابات ولا شي، وأقرب شي من موقعك كان على بعد كم كيلو، وهو حوش الإبل الي راعيه أنقذك بعد الله وبلّغ الشرطة عنك.

– مستحيل!!

– للأسف هذي هي الحقيقة، وتقدرين تتأكدين بنفسك من الشرطة والهلال الأحمر.

هذه المأفونة تريد أن تقنعني بأنه لا وجود لهوشيار ولا لآدوم أيضاً، أيّ جنونٍ هذا؟

لا خيار عندي لإقناعها بالدليل القاطع إلا أن أجعلها تقرأ قصة هوشيار، وإن كنت لا أحبّذ هذا، ولكن للضرورة أحكام، وسيتفهم حبيبي هوشيار ذلك عندما أشرح له ما جرى.

فتحت الدرج المجاور في عصبيّة، وأخرجت قصّة هوشيار التي خطّها بيده، وتحكي كل شيء عنه وعن علاقته بي، ومددت بها إلى الطبيبة الغبية..

– إقري قصة هوشيار، وعساك تصدقين بس؟

– قريتها كلها قبل ما أقعّدك من النوم.

– هو الي خطّها بيده، شرايك؟

– أبداً، غير صحيح، هذي كتابتك إنتي بخطّ يدك يا حنان، الممرضات أفادوني بأنهم شافوك تكتبين طول الليل بعد ما شكّوا في أمرك يوم طلبتي منهم الأوراق والقلم في وقت متأخّر.

– مستحيل، مستحيل، لا تصدّقينهم.

– وعشان كذا رحمناك من الأرق ومن كثر ما تكتبين، وأعطيناك المهدّئ عشان يساعدك على النوم والراحة.

– أنتي أكيد مجنونة.

انخرطتُ في نوبة بكاءٍ جامحة رغماً عني لمجرد الاعتقاد ولو للحظة أنه لا وجود لحبيبي هوشيار، وشعرتُ بأني أسقط في بئرٍ على شكل دوّامة عميقة جداً لا قرار لها، خرجت من الدوامة لأجد الطبيبة المجنونة تراقبني، ولذا، فقد قرّرت على الفور بأن أرمي بآخر أوراقي التي لن تخيب، وسأجعلها تندم على ما تفعله بي.

سأستدعي هوشيار شخصياً، وسأطلب منه أن يكشف عن نفسه أمامها، ثم سأطلب منه أن يتسلّط عليها بالأذى لتتيقّن حقّاً أن الحقيقة مؤلمة عندما تصرّ على إنكارها..

– تدرين إنتي ما ينفع معك إلا الشديد القوي.

– أرجوك يا حنان، إهدي، وخلّينا نتفاهم على العلاج المناسب لحالتك، عشان تطيبين وترجعين لحياتك الطبيعية بأسرع وقت، ولا تضطريني أستخدم معك الإبر.

– بنادي لك على هوشيار عشان تشوفينه بعيونك، وبعدها بتعرفين إن الله حقّ.

انفتحت الستارة التي تحيط بنا، وظهر لنا عدد من الممرضات المتحفّزات للانقضاض عليّ، وكانت الطبيبة تشير إليهن بالثبات في أماكنهنّ بينما أخذتُ أنا أنادي على حبيبي هوشيار ودموعي الحارّة تعميني:

– هوشيااار، هوشيااار، هوشيااار، وين أنت يا هوشيار؟

أنقذني أرجوك يا هوشيار، وين رحت وخلّيتني يا هوشيار؟

ناديت..

وناديت..

ولا جواب..

لقد رحل هوشيار..

رحل دون أن يودّعني..

لماذا لم تأخذني معك يا هوشيار؟